حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

فصلية علمية محكمة - تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

ANNALS of
ARTS and SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

مضمرات التأويل: الأنساق الثقافية لظاهرة إتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية

Hidden Interpretation: The Cultural Contexts of the Destruction of Books in Arab Islamic Civilization

د. معجب سعيد العدواني

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب
جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

Dr. Mageb AL-Adwani
Department of Arabic Language - Faculty of Arts
King Saud University
Saudi Arabia

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية
الحولية الثالثة والثلاثون
الرسالة ٣٧٢
١٤٣٤هـ/٢٠١٣م (مارس)

جامعة الكويت
مجلس النشر العلمي

University of Kuwait
Academic Publication Council

ISSN: 1560 - 5248
الرسالة ٣٧٢ - الحولية ٣٣
١٤٣٤هـ/٢٠١٣م (مارس)

ISSN: 1560 - 5248
Monograph 372 - Volume 33
1434 A.H/2013 (March)

ثمن العدد

الكويت: ٥٠٠ فلس
البحرين: دينار واحد
قطر: ١٠ ريالات
الإمارات: ١٠ دراهم
السعودية: ١٠ ريالات
عمان: ريال واحد

ثمن النسخة في دول الوطن العربي ما يعادل دولاراً واحداً

ثمن النسخة في الدول الأجنبية ما يعادل ثلاثة دولارات

الاشتراك السنوي لعدد (١٢) رسالة

سنوات الاشتراك	نوع الاشتراك	الكويت	الدول العربية	الدول الأجنبية
سنة واحدة	أفراد	٤ دنانير	٦ دنانير	٢٢ دولاراً
	مؤسسات	٢٢ ديناراً	٢٢ ديناراً	٩٠ دولاراً
سنتان	أفراد	٧ دنانير	١٠ دنانير	٣٧ دولاراً
	مؤسسات	٣٧ ديناراً	٣٧ ديناراً	١٥٠ دولاراً
٣ سنوات	أفراد	١٠ دنانير	١٤ ديناراً	٥٢ دولاراً
	مؤسسات	٥٣ ديناراً	٥٢ ديناراً	٢١٠ دولارات
٤ سنوات	أفراد	١٣ ديناراً	١٨ ديناراً	٦٧ دولاراً
	مؤسسات	٦٧ ديناراً	٦٧ ديناراً	٢٧٠ دولاراً

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى توجه إلى رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص. ب: ١٧٣٧٠ الخالدية - الكويت: 72454 - ت: ٢٤٨١٠٣١٩ - فاكس ٢٤٨١٠٣١٩

ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

E-mail: aass@ku.edu.kw

http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/AASS/

إصدارات مجلس النشر العلمي

مجلة العلوم الاجتماعية ١٩٧٣، مجلة الكويت للعلوم والهندسة ١٩٧٤، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ١٩٧٥، لجنة التأليف والتعريب والنشر ١٩٧٦، مجلة الحقوق ١٩٧٧، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٨٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٩٨١، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ١٩٨٣، المجلة التربوية ١٩٨٣، المجلة العربية للعلوم الإدارية ١٩٩١.

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ANNALS of ARTS and SOCIAL SCIENCES

تصدر عن مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت

فصلية علمية محكّمة تتضمن مجموعة من الرسائل وتعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في مجالات اهتمام الأقسام العلمية لكليتي الآداب والعلوم الاجتماعية:

الآداب:

اللغة العربية وآدابها، اللغة الإنجليزية وآدابها، التاريخ، الفلسفة، الإعلام.

العلوم الاجتماعية:

الاجتماع والخدمة الاجتماعية، الجغرافيا، علم النفس، العلوم السياسية.

الحولية الثالثة والثلاثون

الرسالة الثانية والسبعون بعد المئة الثالثة

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

هيئة التحرير

د. فاطمة إبراهيم آل خليفة
رئيسة هيئة التحرير

أ.د . بدر محمد الأنصاري
قسم علم النفس

أ. د. شفيق الغبرا
قسم العلوم السياسية

أ. د. جمال بدر القناعي
قسم اللغة الإنجليزية وآدابها

د. حسين أحمد بوعباس
قسم اللغة العربية وآدابها

د. جاسم سليمان الفهيد
قسم اللغة العربية وآدابها

د. علي زيد الزعبي
قسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية

د. أحمد الشربيني
قسم التاريخ

مها إبراهيم المسعد
مديرة التحرير

الهيئة الاستشارية

أ. د. إبراهيم السعافين
قسم اللغة العربية – الجامعة الأردنية

أ. د. حياة ناصر الحجي
قسم التاريخ – جامعة الكويت

أ. د. أحمد عتمان
قسم الدراسات اليونانية واللاتينية
جامعة القاهرة

أ. د. عبدالقادر الفاسي الفهري
قسم اللغة العربية – جامعة محمد الخامس

أ. د. إسماعيل صبري مقلد
قسم العلوم السياسية – جامعة أسيوط

أ. د. ماري تريز عبدالمسيح
قسم اللغة الإنجليزية – جامعة الكويت

أ. د. إمام عبدالفتاح إمام
قسم الفلسفة – جامعة عين شمس

أ. د. محمد غانم الرميحي
قسم الاجتماع – جامعة الكويت

أ. د. حمدي حسن أبو العينين
عميد كلية الإعلام – جامعة مصر الدولية

أ. د. محمد محمود إبراهيم الديب
قسم الجغرافيا – جامعة عين شمس

أ. د. محمود السيد أبو النيل
قسم علم النفس – جامعة عين شمس

قواعد النشر في
حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

١ – حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلة فصلية علمية محكمة، تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، تنشر البحوث من الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والأجنبية في الموضوعات الأدبية والاجتماعية والإنسانية.

٢ – تنشر الحوليات البحوث والدراسات الأصلية، باللغتين العربية والإنجليزية، على ألا تتجاوز صفحات **متن أي بحث** ٢٠٠ صفحة، ولا تقل عن ٥٠ صفحة **(في المتن دون الهوامش والمراجع)**.

٣ – **قواعد تسليم البحوث:**

أ – يقدم البحث **مطبوعاً من ثلاث نسخ**، على ورق (A4)، وعلى مسافة واحدة، وبنط **(١٤)**، مع **القرص المرن** الخاص به.

ب – يرفق الباحث ملخصاً للبحث مطبوعاً باللغتين العربية والإنجليزية؛ في حدود **١٥٠ كلمة** للغة العربية، و**٢٠٠ كلمة** للغة الإنجليزية.

ج – يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة، مطبوعة باللغتين العربية والإنجليزية، تشمل أهم مؤلفاته وأبحاثه.

د – يقدم الباحث إقراراً كتابياً بأن البحث المقدم لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها.

هـ – تقدم الخرائط، والأشكال، والرسوم **بأصولها** الصالحة للطباعة، أما الصور الفوتوغرافية فتطبع على ورق لماع، مع ضرورة تقديم **الشريحة الأصلية للصور الملونة**.

و – في حال رغبة الباحث نشر الصور، أو الخرائط، أو الأشكال البيانية **ملونة، يلتزم دفع تكاليفها**.

٤ – **يراعي الباحث عند كتابة هوامش البحث ومصادره ومراجعه ما يلي:**

أولاً – الهوامش:

أ – توضع الهوامش في **نهاية كل فصل**، أو في **نهاية البحث** في حالة عدم وجود فصول.

ب – ترتب أرقام التوثيق بطريقة متسلسلة حتى نهاية كل فصل، أو حتى نهاية البحث في حالة عدم وجود فصول.

ج – تثبت الهوامش عند ذكرها لأول مرة كاملة على النحو التالي:
اسم المؤلف، عنوان الكتاب **(بالبنط الأسود)**، رقم الطبعة/ رقم الجزء، مكان النشر، اسم الناشر، سنة النشر/ رقم الصفحة.

مثال:

- أحمد محمد عبدالخالق، **معجم الألفاظ الشخصية**، الطبعة الأولى - دولة الكويت، مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، ٢٠٠٠م/ ص١٥.

* المرجع السابق، ص٢٦.

- وفي حالة وجود فاصل **هامش مختلف** يذكر على النحو التالي:

* أحمد عبدالخالق، **معجم الألفاظ الشخصية** - ص٣٥.

ثانياً - المصادر والمراجع:

يرتب ثبت المصادر والمراجع **ترتيباً ألفبائياً**، بحسب الأسماء المشهورة للمؤلفين.

ويتبع في إثباتها ما يلي:

اسم المؤلف، عنوان الكتاب **(بالبنط الأسود)**، اسم المحقق أو الشارح أو المترجم، رقم الطبعة، اسم الناشر، مكان النشر، السنة.

مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **كتاب «الحيوان»**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، ١٩٦٥م.

٥ - **شروط قبول الأبحاث في الحوليات:**

أ - لا تقبل الحوليات البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.

ب - أصول البحوث المقدمة للنشر لا ترد ولا تسترجع، سواء أنشرت أم لم تنشر.

ج - لا يجوز نشر البحوث في جهات أخرى بعد موافقة الحوليات على نشرها، وإذا ثبت ذلك، فستتخذ إدارة الحوليات الإجراءات القانونية المتبعة بهذا الشأن.

د - يمكن للباحث نشر بحثه في جهات أخرى، بعد الحصول على إذن كتابي مسبق من رئيس التحرير، وبعد انقضاء ثلاث سنوات - على الأقل - على نشره في الحوليات.

هـ - تمنح المجلة للباحث **خمسين** نسخة من بحثه المنشور إهداء.

٦ - ترسل البحوث وجميع المراسلات الخاصة بالحوليات إلى:

رئيسة تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية
ص.ب: ١٧٣٧٠ الخالدية
رمز بريدي: 72454
الكويت

ISSN 1560 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab
http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/AASS
E-mail: aass@ku.edu.kw

الرسالة ٣٧٢

مضمرات التأويل: الأنساق الثقافية لظاهرة إتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية

د. معجب سعيد العدواني
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب
جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية الثالثة والثلاثون - ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

المؤلف:

د. معجب سعيد العدواني:

- دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، عن أطروحة "تواتر السمات التقليدية في الرواية العربية الحديثة: دراسة في التناص"، جامعة مانشستر، بريطانيا، ٢٠٠٧م.
- أستاذ النقد والنظرية المشارك، وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الملك سعود.

الإنتاج العلمي:

أولاً – الكتب:

١ – ابن السروي وذاكرة القرى، (مشترك)، تحرير: علي الدميني، ط١، ١٩٩٩م.
٢ – الغذامي الناقد، (مشترك)، تحرير: عبدالرحمن السماعيل، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.
٣ – تشكيل المكان وظلال العتبات، نادي جدة الأدبي، جدة، ط١، ٢٠٠٣م.
٤ – الكتابة والمحو: التناصية في أعمال رجاء عالم الروائية، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
٥ – مرايا التأويل: قراءات في التراث السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٦ – الرواية العربية والنقد، (مشترك)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٧ – أوراق فلسفية، (مشترك)، الحلقة الفلسفية، نادي الرياض الأدبي، الرياض، ط١، ٢٠١٠م.
٨ – السرد في الأدب الإماراتي: (مشترك)، تجربة الرواية النسائية، تحرير عبدالفتاح صبري، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠١٠م.
٩ – أنموذج القتال في نقل العوال، أحمد بن أبي حجلة التلمساني، (تحقيق وتقديم) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
١٠ – نزهة أرباب العقول في الشطرنج المنقول، يحيى بن عبدالله الحكيم، (تحقيق وتقديم) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
١١ – آفاق التجديد في الأدب السعودي: الرؤية والتشكيل، (مشترك)، كتاب مجلة جامعة الطائف، جدة، مطابع السروات، ط١، ٢٠١٢م.
١٢ – التشكل والمعنى في الخطاب السردي، (تحرير)، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

ثانياً – البحوث:

١ – رؤى العرب القدماء حول النص، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدة، عدد ٢، ١٩٩٩م.
٢ – تشكيل المكان في الرواية النسائية السعودية، علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، عدد ٣٣، ١٩٩٩م.
٣ – جزاء سنمار، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدة، عدد ٧، ٢٠٠١م.
٤ – أسئلة الحكاية الخرافية، المأثورات الشعبية، الدوحة، عدد ٦١، ٢٠٠١م.
٥ – رحلة التناصية إلى النقد العربي القديم، علامات، النادي الأدبي بجدة، مجلد ١١، عدد ٤٤، ٢٠٠٢م.
٦ – جماليات النهايات الإبداعية: مدخل نظري، مقاربات: مجلة العلوم الإنسانية، الرباط، عدد ٢، ٢٠٠٨م.
٧ – كيف تكتب المرأة السعودية سيرتها؟ علامات، النادي الأدبي بجدة، مجلد ١٧، عدد ٦٦، ٢٠٠٨م.
٨ – القصة القصيرة: عمى البدايات وأزمة النهايات، مجلة أبعاد، نادي القصيم الأدبي، عدد ٤، ٢٠٠٩م.
٩ – قراءات في التراث السردي: سبق السيف العذل، مجلة حقول، نادي الرياض الأدبي، عدد ٨، ٢٠٠٩م.
١٠ – نهايات الرواية السعودية: استشراف واحتجاج، علامات، نادي جدة الأدبي، مجلد ١٧، عدد ٦٨، ٢٠٠٩م.
١١ – الكتابة بوصفها فاعلاً سردياً، مجلة الآطام، نادي المدينة المنورة الأدبي، عدد ٣٤، ٢٠٠٩م.
١٢ – أسئلة الهوية الثقافية وتمثيلاتها في الرواية العربية، مجلة العقيق، نادي المدينة المنورة الأدبي، مجلد ٣٦، عدد ٧١–٧٢، ٢٠٠٩م.
١٣ – سجال الجرجاني مع القاضي عبدالجبار في كتاب دلائل الإعجاز، مجلة الدراسات العربية، جامعة المنيا، عدد ٢٠، ٢٠٠٩م.
١٤ – ملامح المكان الخارجي في الرواية النسائية ودلالاته، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، مجلد ٢٢، عدد ٢، ٢٠١٠م.
١٥ – الآخر وعلاقات القوة: تمثيلات الجواري في الرواية السعودية، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠١١م.
١٦ – آليات السجال بين خطابي التقليد والحداثة في الأدب السعودي، مجلة جامعة الطائف للآداب والتربية، عدد ٦، ٢٠١١م.

المحتوى

الملخص ١١
مقدمة ١٣
ملامح إتلاف المكتوب ١٧
١ – الكتابة والإحراق ١٧
٢ – الكتابة والإغراق ٢٤
٣ – الرقابة بوصفها إتلافاً مجازياً ٢٨
أنساق إتلاف الكتاب ٣٣
١ – ذاكرة الكتابة/ ذاكرة الشفاهية ٣٣
٢ – الكتابة والوراقة ٤٠
٣ – الكتابة والعمران ٤٤
٤ – الإنسان والكتاب ٤٧
٥ – تعدد مستويات المعنى ٥٥
٦ – الكتاب بوصفه مادة ٥٩
خاتمة ٦٣
الهوامش ٦٧
المراجع ٧٥

الملخص

تتوسل الدراسة التالية إلى استنطاق ظاهرة إتلاف الكتب في الثقافة العربية، وعلاقتها ببعض الظواهر المشابهة الأخرى في الثقافات العالمية؛ إذ يمكن وصف هذه الظاهرة بكونها شائعة بين كل الأمم، وتضم أربعة ملامح مرت بها المكتبات والكتاب العربي: ملمح الحرق، وملمح الإغراق، وملمح الدفن، وملمح التمزيق أوالتقطيع. وتؤدي كل هذه الملامح وظيفة واحدة وهي وظيفة الإتلاف الذي نتج عن تلق غير عادي للكلمات المكتوبة. ترمي هذه المحاولة التأويلية إلى الارتهان إلى قراءة نصوص متنوعة، قدمت لنا ظاهرة تغييب الكتاب وإتلافه، ولذا، فإن محاولة التأويل هنا ستكون إجابة أو شبه إجابة عن سؤالين، هما: كيف غيب الكتاب العربي بهذه الصورة المتواترة عبر التاريخ؟ وما الأنساق المضمرة التي تتوارى خلف هذه الظاهرة؟

وتقتضي الإجابة عن السؤال الأول المراجعة التاريخية والفحص الدقيق لأحداث متنوعة، وهي إجابة عن سؤال (كيف)، أما السؤال الثاني فإجابته محاولة للكشف عن الأسباب الخفية التي أدت إلى ذلك التغييب، وهي الإجابة المفترضة عن سؤال (لماذا). سنعرض هنا لأهم الملامح التي استلب فيها دور الكتاب؛ إذ تم العبث به في إطار أحد الأنواع الثلاثة الآتية: الكتابة والإحراق، والكتابة والإغراق، والرقابة بوصفها إتلافاً مجازياً. ثم نعرض لأهم الأنساق التي تتحكم في الظاهرة وتعيد إنتاجها، وهي: ذاكرة الكتابة/ ذاكرة الشفاهية، والكتابة والوراقة، الكتابة والعمران، الإنسان والكتاب، تعدد مستويات المعنى، الكتاب بوصفه مادة.

مقدمة

تكمن أهمية الكتاب في كونه الوعاء الثابت والدائم للكلمة الفاعلة والخلّاقة، إنه يجمع بين القوة والضعف، والخطورة والانقياد في آن، ولهذا يتعرض الكتاب كثيراً لمحاولات الإلغاء والتدمير، فينتج عن هذا سلسلة من الأحداث، ومن ثَمّ النصوص التي تتعرض للسطوة التي يمارسها الإنسان على الكتاب، وتكشف عن مقاومة الكتابة والكتاب لتلك الهيمنة الدائمة.

تواترت ظاهرة إتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية بصورة حادة، وراوحت في انطلاقها بين الواحد والمتعدد، والطابع الفردي والجماعي، والكتاب والمكتبات، لتتباين في درجات حدتها بين فترة وأخرى؛ لقد عانى الكتاب العربي الإتلاف أو التغييب مع ازدهار تلك الحضارة الإسلامية، وتزايدت أعراض هذه الظاهرة وآثارها مع خفوت ضوء الحضارة منذ قرون، ولما لهذا الموضوع من أهمية فقد آثرنا أن نعرض لها في الصفحات القادمة مع استلهام ملامح جديدة في الثقافة العالمية، في محاولة نسعى إلى أن تكون برؤية أخرى، ومن خلال آليات مختلفة لتسهم في الكشف عن ملامح الظاهرة وأنساقها الخفية، لذا كان استنطاق ظاهرة إتلاف الكتب في الثقافة العربية خاصة وفي بعض الثقافات العالمية بصورة عامة، إذ يمكن وصف هذه الظاهرة بكونها شائعة بين كل الأمم؛ فقد روى لنا التاريخ حوادث من أزمنة متنوعة، ومن أمم مختلفة، تناولت تغييب الكتاب وإتلافه، ومن أهم تلك الحوادث وأقدمها حادثة إتلاف التوراة التي رواها ابن كثير: "فقالت بنو إسرائيل، فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير، وقد حرق بختنصر التوراة، ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتتبها لنا، وكان أبوه سروخاً قد دفن التوراة أيام بختنصر"[١]. ثم توالت حوادث إتلاف الكتب وتعددت في العصور الحديثة، ومن أشهر تلك الحوادث ما اتهم به النظام النازي بإتلاف ما يزيد على عشرين ألف كتاب في ١٠ مايو ١٩٣٣م، لقد قام بتأليف تلك الكتب ثلة من الفلاسفة

والمفكرين والشعراء الذين وقفوا ضد النازية مثل (كارل ماركس) و(ألبرت إينيشتاين) و(بيرتولت بريخت) و(هيلين كيلر) و(فرانز كافكا) و(إيميل زولا) و(مارسيل بروست). كما أن عدداً من الأدباء والمفكرين عرضوا لهذه الحادثة في نصوصهم وتناولوها، ولعل أشهر نص شعري ذلك النص المعنون بـ "إحراق الكتب" لبريخت، ويتضمن حالة مبدع حرقت السلطة كتبه، فيدعو لإحراقه معها عبر رسالة يبعثها إلى السلطة نفسها(٢).

لقد نتج عن هذه الظواهر الثقافية التي تعالقت بالكتاب العربي قديماً ظواهر حديثة عاشت متطفلة عليها، ومنها يمكن أن نشير إلى تدجين الثقافة، وتهميش الكتاب، وخلق إنسان استهلاكي عاجز عن الإنتاج، وظهور أدب الإثارة والترويج له، إلى جانب ازدهار سوق الرقابة على الكتاب بوصفه منتَجاً فاعلاً؛ ما يشير إلى استمرار ظاهرة إتلاف الكتاب واقعاً أو رمزاً تطلعاً إلى إنهائه عبر التاريخ.

ومن المناسب أن نشير في البدء إلى كون هذا البحث لا يمثل إدانة لأحد أو محاولة إنكار أدوار قام بها أولئك أو هؤلاء، بمن فيهم من تم اختيارهم كأمثلة، لكنه يمثل محاولة نقدية تأمل ألا تصبح جزءاً من منظومة التعامل القسري مع الكتب، وتعترف أن ما يتم في أي ثقافة من هيمنة ذلك التعامل ما هو إلا تعامل نقدي قد يصبح قسرياً أيضاً، لكنه قد يكون محفوفاً بإطارات وسياقات مختلفة أيضاً.

تؤمن هذه القراءة بمبدأ النظر إلى المنجز الثقافي الإنساني بصورة شمولية، فالثقافة العربية لا يمكن فصلها عن العالم، لذا فقد توسلت قراءتنا إلى الاستعانة بما حدث في ثقافات أخرى؛ ما يؤكد أن الثقافة العربية جزء من الثقافات الأخرى التي عانت ولاتزال طائلة يد الإتلاف للكتاب، ولو لم تكن هذه الثقافة ثقافة خلاقة لما تمكنت من إنتاج ما اعتُقِد بخطئه أو ضلاله في ظل مؤثرات كثيرة، ولو لم تكن ثقافة لها حضورها وذاكرتها لما احتفظت بذلك السجل الكبير من حوادث الإتلاف الكتابي في شتى الصور.

يمكننا القول عن الإتلاف أو التغييب هنا: إنه مفهوم فضفاض يمكن أن يضم

أربعة ملامح مرت بها المكتبات والكتاب العربي، وهذه الملامح يمكن تحديدها في حالات أربع، ملمح الحرق، وملمح الإغراق، وملمح الدفن، وملمح التمزيق أو التقطيع. وكل هذه الملامح تؤدي وظيفة واحدة، وهي وظيفة الإتلاف الذي نتج عن تلقٍّ غير عادي للكلمات المكتوبة، وتبدو هذه الملامح مرتهنة في إطارها، النظري على الأقل، إلى النظرية اليونانية القديمة التي جسدت العناصر الأربعة في النار والماء والتراب والهواء، لكن ذلك لن يفرض علينا أن نسعى إلى العبور إلى جميع تلك العناصر، لكن هذا البحث سيركز على اختيار عنصرين رئيسين هما: النار والماء، ولا يعني هذا الاختيار إهمالاً للعنصرين الآخرين: الهواء والتراب، قدر كونه ناتجاً عن شمول هذين العنصرين السابقين لأغلب حوادث الإتلاف الكتابي، ويتصل ذلك مباشرة بما رآه "أبوعثمان الجاحظ" الماعون الأكبر للأشياء حين أشار إلى كون "الماعون الأكبر، الماء والنار"(٣).

ومن ثم سنلج إلى هذه الظاهرة التي لا تعد جديدة، والتي يكمن إشكالها في كونها الانعكاس الطبيعي لفضاءات الثقافة وامتداداتها؛ إذ تتصل بالكلمة وتأثيرها وأدوارها المتنوعة في المعارضة أو التغيير، التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، إلى جانب ذلك ترمي هذه المحاولة التأويلية إلى الارتهان إلى قراءة نصوص مختلفة قدمت لنا ظاهرة تغييب الكتاب وإتلافه، لكن هذه المحاولة سترمي إلى الانطلاق من محاور مقترحة، ربما كانت محاور تسمح بانفتاح آفاق تأويلية أكثر. إلا أنها، في الوقت نفسه، ستظل قيداً يتلمس المنهجية العلمية في التناول، ولذا فإن محاولة التأويل هنا إجابة أو شبه إجابة عن سؤالين اثنين، هما: كيف غيب الكتاب العربي بهذه الصورة المتواترة عبر التاريخ؟ وما الأنساق المضمرة التي تتوارى خلف هذه الظاهرة؟

وتقتضي الإجابة عن السؤال الأول المراجعة التاريخية والفحص الدقيق لأحداث متنوعة، وهي إجابة عن سؤال (كيف)، أما الثاني فستكون إجابته محاولة للكشف عن الأسباب الخفية التي أدت إلى ذلك التغييب، وهي الإجابة المفترضة على سؤال (لماذا).

سنعرض هنا لأهم الملامح التي استُلب فيها دور الكتاب؛ إذ تم العبث به في إطار أحد الأنواع الثلاثة الآتية: الكتابة والإحراق، الكتابة والإغراق، الرقابة بوصفها إتلافاً مجازياً. ثم نعرض لأهم الأنساق التي تتحكم في هذه الظاهرة وتعيد إنتاجها، وهي: ذاكرة الكتابة/ ذاكرة الشفاهية، والكتابة والوراقة، الكتابة والعمران، الإنسان والكتاب، تعدد مستويات المعنى، الكتاب بوصفه مادة.

ملامح إتلاف المكتوب

١ - الكتابة والإحراق:

كان للإحراق الحظ الأوفر دائماً بين طرق إتلاف المكتوب، وأحياناً الملفوظ مع صاحبه، وحين يتعانق الحرق مع الحرف في زمان ومكان واحد يؤسسان ذلك التجانس بين لفظين، إلى جانب التباين بين دوري الهدم والبناء، غير أن هذا الاتحاد في الشكل لا يتضمن اتحاداً شكلياً يؤسس على منطقة الجناس فحسب، ولكنه اتحاد قد ينصب على الجذور الأولى للكلمات باعتبار العلاقة الطبيعية لها، حين تتحد الكلمتان في الإيحاء بالتغيير أو التحول، إذ إن لهما الدور المؤثر أو لهما تأثير سريع، لتزداد العلاقة بين الحرق والحرف كلما أوغلنا في الصراع. فنحن حين نقطع "الصلة بالجذور الأولى للكلمات، فإن الروح ما قبل التاريخية، أو بالأحرى الخافية (اللاشعور) لا تفصل الكلمة عن الشيء، فإذا قلت إن إنساناً ما امتلأ ناراً كانت تعني أن شيئاً ما يشتعل في داخله"(٤).

في الجانب التاريخي رُوي أن أول حادثة تاريخية لإحراق كتاب كانت في الصين في عام ٢١٢ ق.م، حيث قام "كين شاي هونق" بجريمة إحراق الكتب الكونفوشوسية وقتل معلميها، ولولا تلك النسخ الوحيدة التي قيل إنها كانت محفوظة في المكتبة الوطنية الصينية لزالت تماماً، يُشار إلى أنه مع ذلك بقيت نسخ تلك الكتب متداولة حتى يومنا هذا.

وتعد النار أبرز عناصر الطبيعة التي حظيت ببُعدٍ مقدس، فهي الرمز الدائم للتطهير، فكما كانت تستخدم قديماً وحديثاً لتطهير الأراضي الزراعية حين تبيد الأعشاب الضارة، وتكون رماداً يزيد الأرض غناء وينميها، ويشكل الرماد الذي تتركه النار، في الموروث الأسطوري، ولادة لفكرة التطهير المرتبطة بالنماء، كطائر الفينيق

الأسطوري المنبعث من الرماد، أو كطائر السمندل الذي يسقط في النار فلا يحترق ريشه، كما يشير إلى ذلك الجاحظ في كتابه "الحيوان" في مواضع مختلفة.

وتحمل النار هنا دلالة الخصوبة والولادة وبينهما يحدد الكتاب المحروق موقعه. ولنا أن نتأمل لحظة إحراق كتاب "سلمان رشدي" أمام كاميرات التلفزة العالمية في إيران، وفي بعض المدن البريطانية كمدينة برادفورد، وتحول تلك اللحظة إلى نقطة ولادة قوية جديدة للكتاب ومؤلفه؛ إذ حرصت دوائر في الغرب على تبني الكتاب والكاتب بعد تلك الحادثة مباشرة، ومع أن النار هي "الظاهرة الموضوعية لغضب داخلي، وليَدٍ قد توترت أعصابها"(٥)، فإن أي غضب يجعل الكتاب جحيماً سيؤدي إلى انتشار أكثر ولاهتمام أكبر بتلك الكتب. وقد نقرأ بين حين وآخر عن إحراق كتاب أو كتب فيتحقق لما عرض على النار الانتشار غير المتوقع، على سبيل المثال، تلك النجاحات الكبيرة التي تحققت بعد إحراق نسخ من أعمال روائية عربية مثل "وليمة لأعشاب البحر" للسوري "حيدر حيدر" وأخرى أجنبية كـ "آيات شيطانية" لرشدي.

وقد يرتبط ذلك الغضب بمسألة الصراع القومي أو الديني، ولذا كان أهم نتائج الغزو العسكري التغيير الثقافي، الذي يتجلى من أبجدياته إحراق الكتب والمكتبات؛ فقد روي أن "الإسكندر المقدوني" أحرق كتب المجوسية لما دخل فارس، واهتم بجمع كتب أخرى كالطب، وقال الأمير "أبو الوفاء المبشر بن فانك" في كتاب "مختار الحكم ومحاسن الكلم": "إن الاسكندر لما تملك فارس، أحرق كتب دين المجوسية، وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة، فنقلها إلى اللسان اليوناني وأنفذها إلى بلاده، وأحرق أصولها"(٦).

ولهذا السبب نفسه كان اتهام المسلمين بحرق كتب الفرس، أشار إلى ذلك "ابن خلدون" في تاريخه(٧)، وعد ذلك مقروناً بالاتهام السابق، واتُّهم المسلمون أيضاً بحرق مكتبة الإسكندرية التي كانت أكبر خزائن الكتب في العالم، والتي أنشأها بطليموس ٣٠٠ ق. م لنقل الآداب اليونانية إلى مصر. إلا أنها، كما تشير "الموسوعة

العربية" قد "احترقت نتيجة غزو حربي، يقوده (يوليوس قيصر) إلى الإسكندرية في عام ٤٨ ق.م، إذ نشبت معركة بحرية واشتعل حريق أتلف دار صناعة السفن وما جاورها من المباني، ومنها مكتبة الإسكندرية العظمى"(٨).

ولا يعد هذا الرأي رأياً عربياً صرفاً فحسب؛ إذ ألمح بعض الرحالة والباحثين إلى ضرورة تبرئة العرب من هذه التهمة، ومن هؤلاء الفرنسي (جيرار دي نيرفال) الذي أكد رفضه ذلك الاتهام في كتابه "بنات النار" الصادر عام ١٨٥٤م بقوله: "اسمحوا لرحالة وطئت قدماه بقايا الحريق، وسأل الذكريات، اسمحوا له أن ينتقم لذاكرة الخليفة المشهور من ذلك الحريق الأبدي لمكتبة الإسكندرية رغم ما جاء به كثير من الأكاديميين، فهو لم يبعث بأوامر لقائده عمرو. إن مكتبة الإسكندرية ومعها "السيرابيون" أو دار الإغاثة التي أحرق جزء منها ودمر من لدن المسيحيين، وذلك خلال القرن الرابع، هم الذين قتلوا – زيادة على ذلك – في الشارع "هيباتي" الفيلسوفة الفيثاغورية المشهورة. هذه – ولا شك – تجاوزات لا يمكن مؤاخذة الدين عليها، ولكن من الأليق أن نبرئ ذمة هؤلاء العرب الأشقياء مما يعاب عليهم من الجهل؛ خصوصاً وأن ترجماتهم حافظت لنا على عجائب الفلسفة والطب والعلوم الإغريقية، بل أضافت إليها من أعمالهم الخاصة التي لم تتوقف عن شق الضباب المتصلب للعهود الإقطاعية بأشعة ثاقبة"(٩).

لقد بلغ عدد الكتب المحروقة في تلك المكتبة – كما يقال – أربعة آلاف مجلد، وقد رأى "يوليوس قيصر" أن يعوض مصر عن هذه الخسارة العلمية، فأهدى إلى "كليوباترا" ما يقرب من ألفي مجلد، وقد أودعت هذه المجموعة أحد المعابد، ودُمِّر هذا المعبد ومكتبته في أثناء الثورات التي وقعت سنة ٣٦٦م. أما مكتبة معبد السرايوم فقد امتدت يد التدمير إليها بعد القرن الرابع، فنقل بعض كتبها إلى الإسكندرية وتشتت الباقي حوالي سنة ٣٩١م. اختلفت الآراء في هذا الحريق، إذ تصعب إضاءة المناسبة التي أحرقت فيها هذه المكتبة، فنجد في إحدى دراسات الإيطالي (أمبرتو إيكو) المعروفة بعنوان "التأويل والتاريخ" إشارته إلى أسطورة الخليفة – عمر بن

الخطاب – التي تشير إلى أمره بإحراق مكتبة الإسكندرية، وأنه أمر الفاتحين بإحراقها؛ لأنها غير ضرورية في إحدى الحالتين؛ كون الكتب التي فيها تقول ما يقوله القرآن فإنها في هذه الحالة غير ضرورية، أما إذا كانت تخبر بما يختلف عنه فإنها في هذه الحالة خاطئة وضارة.(١٠) ومما هو لافت للانتباه عدم إشارة المصادر التاريخية التي سبقت الفتح الإسلامي لمصر إلى وجود مكتبة عامة في الإسكندرية حينذاك، وهو الأمر الذي يدعم الرؤية التي تشير إلى حرق المكتبة في عهد (يوليوس قيصر).

ومن المهم في هذا السياق استرجاع عمل إيكو "اسم الوردة"، ذلك العمل الروائي الذي يمثل قصة مكتبة دير كانت أغلب كتبها عربية، وقصة كتاب يحمل لغز الرواية، إذ يقتل الكتاب الإنسان القارئ بفعل السم الملتصق بأوراقه، كما يقتل الإنسان الكتاب، و يبقى هذا اللغز غامضاً، لا ينكشف إلا بحرق المكتبة التي تقع في دير في إيطاليا، وتُروى بعد الحريق تفاصيل أنقاض مكتبة محروقة "ووجدت على طول جانب من السور خزانة كانت لا تزال واقفة بمعجزة حذو الحائط، ولا أدري كيف نجت من النار، وقد عفنها الماء والحشرات، كانت لا تزال توجد بداخلها بعض الأوراق. وبعض المؤن الأخرى. وجدتها وأنا أبحث بين الأنقاض. كان حصادي ضئيلاً ولكنني قضيت يوماً كاملاً وأنا أجمعه، كما لو كنت أنتظر أن تصلني رسالة من تلك الأعضاء الممزقة التي بقيت من المكتبة... ووجدت أحياناً أوراقاً كانت لا تزال تُقرأ عليها جمل كاملة، وكنت أعثر بسهولة أكثر على تجليدات كانت لا تزال سالمة قد حفِظتها زخرفتها المعدنية... كانت أشباح الكتب تبدو كاملة من الخارج، ولكنها من الداخل اندثرت. نجا منها في بعض الأحيان نصف ورقة أو كان يظهر منها مستهلها، أو عنوانها"(١١).

يتضمن المشهد السابق حالة الكتب بعد الحرق، لكننا سنعرض هنا لمشهد آخر يعبر عن حال المؤلِّف بعد تغييب المؤلَّف، وهذا هو الحادث الأشهر في فضاءات الثقافة العربية، فقد قدم "أبو حيان التوحيدي" مكتبته للنار حتى تنقطع صلته بالأدب والعلم، ثم فضّل أن يفصّل الأسباب في رسالته إلى "القاضي أبي سهل علي

بن محمد"، وكأنه بذلك يرغب في تخليد هذا العمل واستمراره إذ يقول: "وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمئي إليه... الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ، والصبابة نحوي ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمَى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك كأنك لم تقرأ قوله – جل وعز–: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. إن العلم يراد للعمل، كما أن للعمل يراد النجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وفي رقبة صاحبه غلاً. ثم اعلم – علّمك الله الخير – أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأما ما كان علانية فلم أُصِبْ من يحرص عليه طالباً. على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم فحُرمت ذلك كله. وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة عليّ لا لي، فشق عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنّسون عرضي إذا نظروا إليها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها... وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يُقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، ومنهم "أبو عمرو بن العلاء" وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وهذا داود الطائي – وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة، ويقال له، تاج الأمة – طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول. وهذا "يوسف بن أسباط"، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وستر بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه. وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك. وهذا سفيان الثوري مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً. وهذا شيخنا "أبو سعيد السيرافي" سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار..."[١٢].

لقد آثر التوحيدي أن يلقي الضوء في هذه الرسالة الطويلة على أفعال هؤلاء ليخلد عملهم ويخلد عمله. ويرى بعض المؤلفين أن الوزير البويهي الصاحب بن عباد هو الذي أحرق كتب التوحيدي في إحدى نوبات حمقه، وذلك اعتماداً على ما نقله ياقوت الحموي في معجمه، إذ كتب: "فلم أر بعد ذلك إلا الخير، حتى عراه نُوك (نَوك) آخر، فوضعني في الحبس سنة، وجمع كتبي وأحرقها بالنار، وفيها كتب الفراء والكسائي ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام، فلم يميزها من كتب الأوائل، وأمر بطرح النار فيها من غير تثبت لفرط جهله وشدة نزقه"(١٣).

إن الراوي الخارجي هنا هو أبو حيان التوحيدي، لكنه ليس صاحب المكتبة كما تشير الرواية في مطلعها (قال أبو حيان، وقال لي علي بن الحسن الكاتب...). ويلقب "علي بن الحسن الكاتب" بابن الماشطة، وللعودة إلى موضوعنا نلمس أن عقاب ابن الماشطة تم عن طريق إحراق كتبه، وقد تم هذا الحرق بأمر من الصاحب بن عباد، الذي أحرقت مكتبته بعد وفاته، تنفيذاً لأمر السلطان "محمود الغزنوي"، بعد أن احتل مدينة الري بعد وفاة الصاحب بأقل من نصف قرن؛ أي حوالي ٤٠٠هـ، فقد أمر باستخراج كتب علوم الأوائل وعلم الكلام من مكتبة الصاحب التي كان وقفها على مدينة الري، وأمر بإحراقها(١٤).

كانت هذه الأحداث كلها في المشرق العربي، أما في المغرب فقد كانت ظاهرة حرق الكتب عادة العصر وديدنه، وهي عادة حرق إجبارية أكثر منها اختيارية، إذ أحرقت في عهد أبي يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن المتوفى سنة ٥٩٥هـ كتب الفروع في الفقه فانقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والقرآن ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة "ابن سحنون"، وكتاب "ابن يونس"، ونوادر "أبي زيد" ومختصره، وكتاب "التهذيب" للبراذعي، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها. كتب صاحب "المعجب": لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار"(١٥).

وقد أثار ابن حزم عداء المعتضد بن عباد حاكم إشبيلية فطارده وهدم دوره وصادر أملاكه وأحرق كتبه بإشبيلية علانية، فلما بلغه ما فعله المعتضد بكتبه قال:

دعـونـي مـن إحـراق رق وكـاغـد ... وقولوا بعلم كي يرى النـــاس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صـــدري
يسير معي حيث استقلت ركـائبي ... وينزل إن أنـــزل ويدفـن في قبري
وإلا فعـــودوا فـي المكـاتـب بـدأة ... فكـــم دون ما تبغـــون لله من ستر
كذاك النصارى يحرقون إذا علَت ... أكفهم القـــرآن في مُـــدن الثغر

ويذكر أن كتب الفقهاء أنفسهم قد تعرضت للحرق أمام العامة في المشرق أيضاً، إذ أُحرقت كتب الفقيه "محمد بن حسن الطوسي" بمحضر من الناس في رحبة جامع النصر، واستتر هو خوفاً على نفسه بسبب ما اتهم به من انتقاص السلف، ومثله اتهام العلامة خليل بن عبدالملك المعروف بخليل الفضيلة بالقدر، فأخرجت كتبه بعد وفاته وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب الفقه، ومثلهما الصوفي الأندلسي ابن ميسرة المتوفى سنة ٦٧٧هـ نسبت إليه مقالات مخالفة للدين فتتُبعَت كتبه بالحرق(١٦). وقد تحرق الكتب في غيبة أصحابها، كما حدث لـ "أبي القاسم عمر بن أبي علي الحسين بن عبدالله الخِرَقي"، من أعيان الفقهاء الحنابلة (توفي ٣٣٤هـ)؛ إذ أودع كتبه في بغداد وغادرها إلى دمشق فاحترقت في غيبته(١٧).

وفي مصر كانت خزانة الأمير عبدالرحمن كتخدا مولى جميع الأمراء المصريين عرضة للحرق؛ إذ "أراد أن يحتاط بجهات وقفه فلم يجد له كتاب وقف ولا دفتراً، وكانت كتب أوقافه ودفاتره في داخل خزانة المكتب، فاحترقت بما فيها من كتب العلم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر"(١٨). ويشيع هذا الأمر في تاريخ الأقاليم العربية، ومن أمثلة ذلك ما يسجله المؤرخ الشيخ نور الدين عبدالله بن حميد السالمي من حوادث إحراق للكتب والمكتبات في نزوى والعقر في عمان(١٩).

وقد أحرقت كتب المفكر (مارتن لوثر) في ١٢ نوفمبر ١٥٢٠ لكن إحراق كتبه لم يلغها، إذ يمكن أن يستأصلها من المكتبة، ولكن من الصعب استئصالها من أذهان

الناس[٢٠]. وفي عام ١٥٢٥م أحرقت السلطات كل نسخة مترجمة من "العهد الجديد" إلى الإنجليزية، التي أنجزها (ويليام تايندال). وأخيراً يمكن الإشارة إلى ما فعله الروس من حرق القرآن الكريم وبعض الكتب الدينية في قرية (نينقلم) في أفغانستان في ٢٣ يونيه ١٩٧٨م بعد قيامهم بحرق بيوت المواطنين هناك[٢١].

إن هذه الحوادث التي نقرأ عنها حالياً لم تلغ فعالية تلك الكتب المحروقة، ولم تنه صيتها، بل زادت إغراء المتابعين لها.

٢- الكتابة والإغراق:

كثرت حوادث إغراق الكتب بالماء مجتمعة أو منفردة، وكما للنار فعلها التطهيري، فللماء أيضاً دوره التطهيري؛ إذ يتصل به إزالة النجس والرجس في معظم الثقافات، ومما يلفت الانتباه أن حوادث إغراق الكتاب كانت أقل صرامة كونها لا تعبر عن غضبة شديدة تستغل النار أداة للإتلاف، كما يلاحظ شيوع حوادث كان يقوم بها خزنة الكتب أنفسهم؛ إذ كانوا يحرصون على تدمير الكتاب أو الكتب التي يرون إتلافها، بوصفهم مراقبين لتلك المكتبات، ومن ذلك ما رواه ياقوت: "حضر ذات يوم المبارك بن المبارك بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ "أبو المعالي أحمد بن هبة الله"، فجرى حديث المعري، فذمه الخازن، وقال، كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه، وأي شيء كان هذا الكتاب؟ قال، كان كتاب "نقض القرآن"، فقال له: أخطأت في غسله. فعجب الجماعة منه، وتغامزوا عليه، واستشاط هبة الله، وقال: مثلك ينهى عن مثل هذا، فقال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن، أو خيراً منه، أو دونه. فإن كان مثله أو خيراً منه – وحاش لله أن يكون ذلك – فلا يجب أن يفرط في مثله، وإن كان دونه – وذلك ما لا شك فيه – فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قولَه، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت"[٢٢].

تتداخل في هذه الحكاية السردية أربعة أصوات؛ صوت الراوي الخارجي ياقوت الحموي، وصوت المبارك بن المبارك، وصوت هبة الله خازن المكتبة، وصوت الجماعة.

حين يعلو صوت الخازن هبة الله معترفاً بغسل الكتاب تدعمه الجماعة، ويقف الراوي سلباً، منتظراً سير الحدث، ثم يظهر صوت المبارك الذي يلغي قيمة الغسل للكتاب ويفندها، تقف الأصوات كلها ضده، مع ملاحظة أن صوت الجماعة هنا يتمثل في جملة (يتغامزون)، يبدو التغامز غير فاعل، ولكنه مؤثر، ويبقى صوت العوام هو الصوت السطحي الذي يدعو إلى إحراق الكتاب وإتلافه، ومع أن صوت العوام غير مسموع لدى النخبة، لكنه يبقى صوتاً مؤثراً على السلطة، كما تشير أغلب الحوادث المتصلة بإتلاف الكتب، ويحيل السلطة إلى صوت إضافي، لذا كثيراً ما كانت تتم عمليات الحرق والإتلاف في ميادين عامة حيث يتحقق للعامة الاطلاع على مشهد كهذا، وتأويله بما يتناسب والصوت السابق، ليبدأ الإتلاف منهم وينتهي إليهم، وكأن العامة لا يرغبون في النيل من كتاب، قدر الرغبة في النيل من كاتب، فيحقق لهم هذا المشهد لذة المتابعة والتغيير المنشود لديهم، الذي يتعارض مع أبجديات هذه المؤلفات.

أما النار والماء فلا يحققان نخبوية في التعامل مع الكتاب، هما من العامة وإليهم، هما ملك مشاع، فالناس "شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ"، ولكن الكتاب يبقى نخبوياً كما كانت السلطة نخبوية، ولذلك لا يتمكن العامة من تدمير ما هو نخبوي بغير هاتين الوسيلتين. حين يمنح المبارك بن المبارك الفرصة لإبداء رأيه المعارض للغسل يوافقه الجميع وأولهم هبة الله الذي غسل الكتاب، (الجميع) هنا هم العامة، ويدعم الراوي ذلك باعتبار أن ما يقوله هو (الحق) الذي ينبغي أن ينصاع إليه الجميع، تأتي لفظة (الحق) متأخرة جداً في النص، ولكن بعد أن غسل منهم المبارك كره كتاب "نقض القرآن"، وهو الأمر الذي أحدث قرار تدمير كتاب إذ يتم دائماً باسم كتاب آخر، وبعبارة أخرى "فإن من يكره كتاباً يحب بالضرورة آخر"(٢٣).

كانت حادثة إغراق كتاب "نقض القرآن" منقوضة بوجهة نظر أخرى إذ اتخذت نمطاً وطريقاً مختلفاً في الحوار، فإن كان الضعف والعجز صفتين لمن أتلفت كتبه/كتبهم أفراداً أو جماعات، فهما تبدوان أيضاً صفتين ملازمتين أكثر لمن قام بهذا

العمل، فالاعتناء بخطورة الكلمة المكتوبة تعيد لنا قوة الكلمة وأثرها، وصلتها بأدوات الإتلاف "إن كلمتك يجب أن تجعل النار تخمد"(٢٤). وكثيراً ما يرد القول الشعبي الذي كرست له الثقافة "عندما يحرك شفتيه تنطلق منهما النار"، وهو قول نابع من الاعتقاد والشعور بالقوة السحرية للكلمة ودورها في التغيير. ويتصل بهذا حكايات أُخر، ومنها ما قام به العلامة تقي الدين السبكي الذي وقف على كتاب موسوم بـ "الطرائف" أورد فيه صاحبه انتصاراً لليهود وأهل الأديان الفاسدة فغسله(٢٥).

وقد يكون استخدام الماء حنقاً أو حسداً من الكاتب نفسه، كما فعل الأديب النحوي علي بن عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٠هـ، إذ وضع كتاباً في النحو شرح فيه كتاب سيبويه، فنازعه أحد التجار في مسألة فقام غاضباً وأخذ كتابه وجعله في إناء وصب عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان، ويقول: لا أجعل أولاد البقالين نحاة. وقد أثبت ياقوت جنون الربعي كما يورد في ترجمته له(٢٦). فالماء يتميز هنا بكونه الحل الأقل خطورة، والأقل تعبيراً عن الغضب المنبثق بدافع واحد لا يحتمل إيقافه، ومن هنا تعددت حالات الإتلاف الفردية به.

لقد مارس بعض الكتاب المحو بالماء وسيلة لإتلاف كتبهم حتى لا تتم الاستفادة من إنتاجهم، إذ كان "المبارك بن المبارك الكرخي" المتوفى سنة ٥٢٥ هـ جيد الخط، وكان يكتب على طريقة "ابن البواب" وربما فاقه في ذلك، ومع ذلك كان ضنيناً بخطه، وإذا اجتمع عنده شيء من خطوطه استدعى طستاً وغسلها(٢٧).

ومن الأمثلة الطريفة المتصلة بإغراق الكتاب ما يُروى في التراث العربي أن "صاعد بن الحسن بن عيسى" المعروف بأبي العلاء اختص بالمنصور بن أبي عامر إبان استبداده بأمور الأندلس، وألف كتابين، أحدهما "الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار" الذي نحا فيه منحى القالي في أماليه، فأثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار، وبعد أن انتهى من تأليفه، دفعه إلى غلام له يحمله بين يديه، وعبر الغلام نهر قرطبة، فزلت قدمه فسقط في النهر، ومعه الكتاب، فقال في ذلك ابن العَريف الشاعر وكان بينه وبين أبي العلاء شحناء ومناظرات:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون، فلم يرُع ذلك صاعداً، وإنما قال:

عاد إلى معدنه إنما تُوجد في قعر البحار الفصوص(٢٨)

أما العلامة علي بن محمد الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ فقد تردد في إبقاء كتبه أو إتلافها، لما رأى عدم إخلاص النية في تأليفها لله بل قيل إنه لم يظهر من تصانيفه في حياته شيئاً، وإنما حفظها كلها في موضع، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق به: "إن الكتب التي في ذلك المكان كلها من تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجدها خالصة لله تعالى، فإذا عانيت الموت ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيئاً منها، فاتجه إلى الكتب وألقها في دجلة ليلاً، وإن بسطت ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت، وأني ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة، قال ذلك الشخص: فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها، ولم يقبض على يدي، فعلمت أنها علامة القبول فأظهرتُ كتبَه بعده"(٢٩).

وتتكرر هذه المواقف المكرسة للماء كأداة إتلاف بمضامين متقاربة، وأشكال أكثر تقارباً، فالفقيه أبو سليمان الطائي الكوفي لما علم من نفسه أنه لا يصبر عن كتبه عمد إليها وأغرقها في نهر الفرات.

وتبدو حوادث الإغراق تلك حوادث ذاتية نتيجة صراع ذاتي لعلها تتجلى بوضوح في قصة صحيفة المتلمس المكتوبة التي نجا بإغراقها، وكان في الصحيفة الأخرى أمر قتل الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، كما تكون حوادث الإحراق نتيجة صراع خارجي غالباً، فالكتاب الغريق أكثر قرباً إلى صاحبه من غيره، بينما كان الكتاب المحروق نتيجة صراع أكثر حدة، وإن حدث من صاحبه فهو أشد بعداً منه؛ لأن التطهير بالنار أقوى وأكثر عنفاً من التطهير بالماء، وربما استند صاحب الكتاب في ذلك إلى مقابلة الماء للنار، ويعني إغراق الكتاب إيماناً مضمناً من الفاعل بأهمية هذا المغيب، فكما الماء مصدر الحياة، فالكتاب مصدر المعرفة ومركز التجدد والانبعاث، ليبدو الماء أفضل الحلول لإتلاف الكتب.

هناك تعدد في الاتجاهات والمواقف، واختلاف في حوادث التغييب تلك، إذ تراوح بين الموقف المغالي في التثمين، ولاسيما من صاحبه، والموقف المفرط والعبثي، إلا أن حوادث إغراق الكتاب من قبل صاحبه تحمل جذوراً أسطورية ضاربة في العتاقة، أبو حيان التوحيدي يجمع بين النار والماء كونه يجمع الحالتين معاً، وهما حالتان تشكلهما شخصيتان مختلفتان في أبي حيان، جمعهما في إطار واحد حين أحرق كتبه بالنار ثم غسلها بالماء.

٣- الرقابة بوصفها إتلافاً مجازياً:

زار أستاذ من جامعة نوتنغهام مكتبة لينين في موسكو في سبتمبر ١٩٥٨م، راغباً في الاطلاع على الكتب التي تهمه في حقله الأكاديمي، لكنه فوجئ بالدليل وقد تضمن كتباً قليلة لا تنبئ عن محتويات المكتبة، ولا تلبي رغبته في الاستزادة، فذهب إلى موظف المكتبة، واستفسر منه عن ذلك الدليل الذي لا يتضمن سوى مراجع قليلة في الحقل، ابتسم الموظف وأخبره أن عليه أن يملأ نموذجاً خاصاً، حتى يتمكن من الحصول على الكتب المطلوبة، فبعض الكتب ليس من الممكن تناولها للقارئ العادي، قام الأستاذ بملء النموذج، وأُحضرت الكتبُ التي وُضع على صفحة العنوان في كل كتاب منها أختام تضمنت العبارات التالية (المخزن الخاص). كانت دهشته أكبر حين لحظ أن هذه الأختام في بعض الكتب تغطي أختاماً أقدم تضمنت كلمة (ملغى)[٣٠]. يمكن النظر إلى هذه القصة في كونها مثالاً صارخاً على طريقة تعامل إحدى الدول الأوروبية مع منجزها الثقافي، فيما يتصل بممارسة الرقابة التي تصل حد الإلغاء للكتاب، والتي مارست الإلغاء أولاً ثم العزل وتحديد قرائها لاحقاً.

ويمكن تعريف الرقابة على أنها أي فعل يحظر أو يقيد أي رأي أو فكر عن الجمهور المستهدف، ومع كونها تلعب أحياناً الدور الشمولي والعام في القيام بممارسات الإحراق والإغراق السابقتين، وأحياناً الدور المجازي للإتلاف للكتب؛ وذلك لكونها تعد جزءاً من منظومة المحافظة على التقاليد والأعراف لكل مجتمع، وهي تمارس من عدد من الجهات التي تخضع لسلطات الدين أو السياسة.

وتشير المصادر التاريخية إلى كون الرومان أول من مارس فعل الرقابة الفعلي عام ٤٤٣ق.م، إذ قامت الرقابة آنذاك بدورها كما يراه الحاكم ومساعدوه. كما كانت أول حالة رقابة تم تدوينها تاريخياً ما حدث للفيلسوف سُقراط؛ إذ حُكم عليه بشرب السم في ٣٣٩ق.م لإفساده الصغار بمعرفته الفكرية، ومن المعتقد أن تكون هناك حالات مختلفة قبل هذا التاريخ، فالقتال من أجل الحرية مرتبط كلياً بتاريخ الرقابة الفعلي نفسه.

ويمكن تصنيف الرقابة إلى نوعين: ظاهرة منظمة وأخرى مستترة تفتقر إلى التنظيم، ويمثل النوع الأول تلك الرقابة التي تفرضها الحكومات على المنشورات الصادرة فيها داخلياً أو خارجياً فيما يسمى بثلاثي الدين والسياسة والجنس، وهي ممثلة في مؤسسات تنتشر في دول شتى من العالم. أما النوع المستتر فيمكن رصده على مستويين اثنين، مستوى شعبي يرتهن إلى محاور شتى في تشكيله الثقافي، وينزع إلى فرض ما يراه على الآخرين دون إدراك لقيم الاختلاف والتعدد، وآخر فردي وهو انعكاس طبعي للمستوى الأول، ويصل إلى إحساس الذات وشعورها بالخطر المحدق ومن ثم الاستجابة الفعلية لما تمليه.

ومن أهم مظاهر الاستجابة لتلك المستويات من الرقابة مستوى التأليف للكتب المدرسية التي يتلقاها الطلاب في مدارسهم؛ إذ تتجلى قضايا التاريخ والدين والسياسة بوصفها محاور ينبغي أن تدور في الإطار المفروض مسبقاً ضمن ما يمكن وصفه خططاً عامة واستراتيجيات محددة لهذا البلد أو ذاك، ولذا كان التباين الكبير الذي نشهده في حقل تأليف الكتب المدرسية في العالم.

إن خطر الرقابة على النشر أمر بديهي، ومع ما للرقابة من سلبيات فللكتاب أيضاً سلبياته التي تتجلى حين يتحول الكتاب ذاته إلى أداة للقتل والتدمير فعلياً أو مجازياً. ويتوافق ذلك مع رمزية القتل في "اسم الوردة"، وذلك باستخدام تقنية التسميم التي تقضي على القارئ المثقف، إذ بنى "إيكو" روايته على مروية كتاب غامض يؤدي إلى تساقط قراء مكتبة في دير إيطالي، وينكشف غموض هذا الكتاب

بتعرف احتواء كتاب كهذا على قوة سامة تعادل سم ألف عقرب، ولعل هذا البناء الذي يورده الروائي ويجعل متلقيه يبقى في حيرة من أمره بحثاً عن الحل منذ بداية العمل حتى يشارف على نهايته، قد استمد قيمته من تلك التداخلات والافتراضات المختلفة التي يؤسس لها ذلك العمل الروائي؛ ما فتح آفاقاً من التأويل النقدي له، ومن ثم التعليقات التي أتبعها ذلك الروائي والناقد في آن لتلك المداخلات النقدية والافتراضات التأويلية.

وإذا كانت الثقافة العربية قد حفظت لنا كثيراً من المرويات التي تشير إلى ضحايا طعام أو شراب مسمومين، لكونهما الأقرب إلى التناول للإنسان، ومن ثم سرعة التأثر به، فإن القارئ العربي قد لا يفاجأ بأن يكون السم على صفحات الكتاب الذي أشار إليه إيكو، فهذا الأمر، في رأيي، لم يكن بعيداً عن اهتمامنا بل حرصنا عليه رمزياً، ولعل هذا الحرص كان أكثر من حرصنا على تمثيله ثقافياً لينبني في إطار سردي، كما فعل إيكو في روايته. لذا فلن نركز على الكتاب المسموم الذي عرضه إيكو في مكتبة تضم آلافاً من كتب (الكفار)؛ أي (العرب)، كما يشير إلى ذلك السارد في "اسم الوردة"، وهي صورة أوروبية قديمة، أراها تتفق مع حالنا الآن في النظر إلى مجموع نتاج الآخر بوصفه غير مجد.

يراوح جانب القتل المجازي بين حالة ذهنية تكرس للخوف وتضطلع بالمحافظة على الموروث بأي صورة قد تكون أحياناً مسيئة للموروث نفسه، وحالة أخرى تعبر عن وعي غير مسؤول من المؤلف أو رقيبه.

ويتكشف هذا الحرص الذهني الرمزي في التأكيد الثقافي الدائم، ولاسيما في اللحظة الراهنة، على أن هذا الكتاب أو ذاك يحمل السم في الدسم، وأن تلك الثقافة حين تطل برأسها عبر نافذة عالمية، فهي متمثلة في صورة الأفعى التي تنفث السم في وجوهنا فحسب، ولعلنا نجد صورة أخرى تتردد كثيراً في مخيالنا الثقافي، وتتوازى مع صورة الأفعى السابقة وهي صورة المرأة التي تأخذ تشكلاتها في الثقافة العالمية من أبعاد مثيولوجية عتيقة. ولا يشكل هذا سوى محاولة بناء أولية لافتتاحية ترمي

إلى الولوج إلى موضوع السم وتشكلاته في ثقافتنا، ليس بوصفه داء يقابله الدرياق أو الترياق، كما تقترحهما المعاجم العربية، ولا بوصفه مدسوساً في وجبة دسمة أو شراب حلو، ولكن بوصفه تابعاً لمتبوع غير الطعام أو الشراب، فهما أمران معتادان يتكرران في مرويات كثيرة، موضوعها الغدر والخيانة وما إلى ذلك. ولذا كان وجود السم في خاتم أو حلية أو كتاب أكثر إدهاشاً لمتلقي المروية.

أنساق إتلاف الكتاب

١ – ذاكرة الكتابة/ ذاكرة الشفاهية:

يعد هذا النسق من بين الأنساق الخفية التي أسهمت في إنتاج حالات الإتلاف الكتابي عبر تاريخ الثقافة العربية. لم تكن حوادث الإتلاف الكتابي مقصورة على إلغاء ذاكرة المكتوب فحسب، بل تجاوز الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك، إذ وصل الأمر إلى نشوء ظاهرة إلغاء أعم وأشمل بلغت حد الأنساق الثقافية المنتجة، كان لثقافتنا الدور الأكبر في تشكيل نسقين ثقافيين أنتج أحدهما الآخر، وقد تم إنتاج هذين المسارين الثقافيين في فترتين زمنيتين مهمتين، هما: فترة بواكير التشكيل الثقافي الإسلامي، وفترة بداية عصور التدوين في العصر العباسي، أما النسقان الثقافيان فهما: نسق غلبة ذاكرة الحفظ والشفاهية على ذاكرة الكتابة، ونسق آخر احتفى بالكتابة وهمّش الشفاهية. ومع أن هذين النسقين يبدوان متتاليين، فهما متكاملان يؤديان إلى نتيجة واحدة في هذا الإطار، إذ يفضيان إلى النتيجة نفسها التي تفترض كونهما نسقين أسهما في تواتر تلك الحوادث.

ونشير هنا إلى أثر هذا النسق الثقافي الأول في كونه النسق المؤسس أو المكرس لمركزية الحفظ والذاكرة الشفاهية، تتجلى عندئذ حوادث الحرق والتغييب الكتابي تهميشاً لقيمة الكتابة وإقامة مفهوم الشفاهية، وتتبعاً لمعطيات تلك الحوادث فقد كثرت تلك الحالات مع بداية عصور التدوين، إذ بدت الحاجة ماسة إليه، فغدا الحضور الفاعل للكتابة عاملاً أساسياً في محاولات تغييب نتاجها، وغدا تعبيراً عن ميل فطري إلى العودة إلى عصور الشفاهية والحفظ التي قد تغني – إلى حد ما – عن الكتاب كمصدر للعلم. لقد أورد "الخطيب البغدادي" تفاصيل كثيرة حول من كان يكتب الحديث ثم يمحوه في كتابه "تقييد العلم"، إذ أورد فيه روايات كثيرة تدعم الشفاهي، وتقلل من دور المكتوب "وكان غير واحد من السلف يستعين على حفظ

الحديث بأن يكتبه، ويدرسه من كتابه؛ فإذا أتقنه، محا الكتاب، خوفاً من أن يتكل القلب عليه، فيؤدي ذلك إلى نقصان الحفظ، وترك العناية بالمحفوظ ... قال مسروق لعلقمة: "اكتب لي النظاير" قال: "أما علمت أن الكتاب يكره"؟ قال: "إنما أنظر فيه ثم أمحوه" قال: "فلا بأس"... حدثنا إبراهيم بن سعد عن عكرمة قال: كنا نأتي الأعرج، ويأتيه ابن شهاب، قال فنكتب ولا يكتب ابن شهاب، قال: فربما كان الحديث فيه طول، قال: فيأخذ ابن شهاب ورقة من ورق الأعرج، قال: وكان الأعرج يكتب المصاحف، فيكتب ابن شهاب ذلك الحديث في تلك القطعة، ثم يقرؤه ثم يمحوه مكانه، وربما قام بها معه، فيقرؤها ثم يمحوها ... قال خالد الحذاء: ما كتبت شيئاً قط، إلا حديثاً طويلاً، فإذا حفظته محوته ... عن عاصم بن ضمرة أنه كان يسمع الحديث ويكتبه، فإذا حفظه، دعا بقراضٍ فقرضه... وعن يحيى بن عتيق عن محمد أنه لم ير بأساً، إذا سمع الرجل الحديث، أن يكتبه؛ فإذا حفظه محاه"[٣١].

ولم يكن الأمر مقصوراً على هؤلاء إذ قد يبرر فعلهم بأنهم كانوا يخشون تعدد المكتوب بجوار القرآن، بل امتد ليشمل آخرين، فهذا أبو عمرو بن العلاء يحرق كتبه كما ينقل الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، أو كما روي في سيرته التي نقلها ابن خلكان "وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرّأ، أي تنسّك، فأخرجها كلها، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه"[٣٢]. وفي الجانب ذاته، قد يكون الحرق لكتاب شخص آخر احتجاجاً على مذهبه أولاً، وتغليباً لذاكرة الشفاهية كإطار سائد ثانياً، ومثل هذا السبب ما نقله ياقوت: "أنبأنا علي بن عبدالله بن المبارك الصنعاني يقول: كان زيد بن المبارك لزم عبدالرزاق بن همام فأكثر عنه ثم حرق كتبه"[٣٣].

هناك أكثر من حادثة تؤسس لتلك الوضعية الثقافية، السائدة إلى حد ما، والمكرسة لمركزية الحفظ وغلبة الشفاهية "وكان عبدالعزيز بن عمران كثير الغلط في حديثه؛ لأنه أحرق كتبه، فإنما كان يحدّث بحفظه"[٣٤]. لكن الحادثة الأشهر هي حادثة حرق "ابن سينا" لإحدى المكتبات في خراسان، إذ ذُكر عند الأمير "نوح بن

نصر الساماني" صاحب خراسان في مرض موته، فأحضره الأمير ليعالجه، وقد نجح ابن سينا في علاجه ولازمه حتى برئ، واتصل به وقرب منه، ودخل إلى دار كتبه، التي كانت عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته، لكن الروايات تنقل ما فعله ابن سينا "فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها، وحصّل نخب فوائدها، واطلع على أكثر علومها، واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتفرد أبو علي بما حصّله من علومها، وكان يقال، إن أبا علي توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها، وينسبه إلى نفسه"(٣٥).

ومع أن الراوي أبرز الفعل (يُقال) حتى لا يتهم أحداً بفعل أو قول، يلتفت "ابن خلكان" إلى القضية الأخطر في الحكاية وهي المتصلة بمحاولة ابن سينا الانفراد بنتاج تلك الكتب، وما انفراده بما فيها إلا تغليب مباشر لمبدأ الاعتماد على الجانب الشفاهي من الكتاب أنفسهم. ولو لم يفعل ابن سينا ذلك، فالثقافة التي نقلت هذا المقول، وقبلت به ليكون محكياً ومتداولاً هي ثقافة قابلة للمبدأ الذي يراهن على دور البعد الشفاهي وأثره.

ويذكر أن كتب التراجم حين تورد سيرة أبي عمرو بن العلاء وغيره من العلماء الذين أحرقوا كتبهم، مع ملاحظة الفرق المهم بين أن يحرق العالم ما يقوم بتأليفه، وهو الأخطر والأكثر أهمية، وأن يحرق كتبه التي يملكها وهو الأمر الأقل خطورة، والأدنى ضرراً، تتفق جميعها في طرح ثلاث حلقات متواليات، وكأنها استكمال لسرد متصل؛ إذ تنتظم تلك السير بوصفها حلقات تتكون من قوة الحفظ والذاكرة، ثم العزلة والتنسك، ثم حادثة الحرق أو الإتلاف لما تم إنتاجه كنهاية محتملة. تشير تلك الحلقات الثلاث: قوة الحفظ، والعزلة، ثم الإتلاف، إلى تنامي الإحساس الفردي وتعاظمه لدى العالم، حتى تتضاءل في نظره أشياء كثيرة ليصبح لا يرى إلا نفسه فحسب.

الحفظ هو أحد الأسس الرئيسة لتحصيل المعرفة في ثقافة تكرس له عبر

نماذج شتى يمكن تتبعها وتحليل أبعادها وأثرها، ولهذا فلا عجب أن يفخر الفقهاء والدارسون بقوة الحفظ، أو أن يستطرد المؤرخون في تحديد محفوظات علماء وفقهاء في مصنفاتهم، فهذا أحدهم – وهو الفقيه عبدالواحد بن إسماعيل الروياني المتوفى سنة ٤١٥هـ – كان يقول: "لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي" (٣٦). ولذا غلب تيار الحفظ والاعتماد على الذاكرة على غيره من التيارات الأخرى التي كانت تتوسل العلم عبر طرائق أخرى كالفهم والتحليل وغير ذلك.

ويعزو معظم المؤرخين سبب ذلك إلى العزلة أو التحولات المرضية، ويؤكدون إسهامهما في تغيير اتجاه الكاتب وأفكاره، وكأن استكمال تلك الحلقات شرط تحقيق الإتلاف الفردي لذاكرة الكتابة، كما حققت التغييرات الطارئة عليه، كما أشار إلى ذلك ابن النديم في وصفه ابن الراوندي، إذ وصفه بكونه حسن السيرة والمذهب، وصاحب حياء شديد في أول أمره، لكنه ما لبث أن "انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له، ولأن علمه كان أكثر من عقله، وقد حكي عن جماعة أنه تاب عند موته مما كان منه، وأظهر الندم واعترف بأنه؛ إنما صار إلى ما صار إليه حميّة وأنفة من جفاء أصحابه وتنحيتهم إياه من مجالسهم" (٣٧).

ويماثل ذلك تماماً ما روي عن حال خلف الأحمر، إذ استطاع الوصول إلى غايته عبر طرائق مختلفة، ضاعفت العزلة من تقدير أثرها، فقرر أن يعلن توبته كما رُوي عنه، ولا يمكن استبعاد أن تكون الرواية أيضاً منسوبة إليه منعاً لدور المكتوب الذي جاء يتوسله "أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا به عليّ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح، ثم مرضت فقلت لهم، ويلكم أنا تائب إلى الله، هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب" (٣٨).

وإذا كان الجاحظ قد أفرد رسالة خاصة في ذم أخلاق الكتاب، وقد ذكر فيها قصة الخليفة "المأمون" حين كتب "أحمد بن يوسف" بين يديه خطأً فأعجبه قائلاً: "وددت – والله – أني كتبت مثله وأني مغرم ألف ألف. فقال له أحمد بن يوسف: لا تأس عليه يا أمير المؤمنين، فإنه لو كان حظاً ما حُرمَه رسول الله، صلى الله عليه

وسلم"[٣٩]. وهو – كما يرى أحد الباحثين العرب – قد استند إلى المأثور الديني والاجتماعي الذي كان موجهاً أساسياً لرؤيته، ورؤية غيره حول هذا الأمر، وبذا فقد سوغ شرعياً إحلال المشافهة محل الكتابة وساهم في ترسيخها[٤٠].

ومع أن الجاحظ في هذه المسألة أو غيرها لا يمكن تأطيره في إطار واحد هنا أو وضعه تحت مظلة محددة، فهو نفسه يقدم لكتابه الموسوعي "الحيوان" بمقدمة فضّل فيها الكتاب والمكتوب، وحين أورد ما قاله ذو الرمة لعيسى بن عمر مدركاً دور المكتوب وأهميته وتلاشي دور الحفظ والذاكرة: "اكتب شعري؛ فالكتابة أحب إلي من الحفظ؛ لأن العربي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشدها الناس، والكتاب لا يُنسى ولا يبدل كلاماً بكلام"[٤١].

ثم يدعم الجاحظ رؤية الشاعر بقول آخر يرد في الكتاب ذاته، مؤكداً تغليبه الكتابي على الشفاهي "ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر"[٤٢].

ويمكن القول: إن هذين القولين لا يوازيان – فعلياً – سوى بعض الذي كتبه الجاحظ في الثناء على الحفظ والذاكرة والإشادة بالدور الشفاهي. إذ يظهر تناقضه في عبارته التي انطلق منها فأبعدها عن اليونانيين الذين هم أهل "فلسفة وصناعة منطق"، وعن الهنود فلهم "معان مدونة وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة"، أما الفرس فكل معنى لهم "إنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ... وفي تفضيل العرب على غيرهم بهذه الصفة دون غيرها كتب الجاحظ "كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة... وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون"[٤٣]. إن وصفه هذا لا يشي إلا بوصفه لحال العرب بأنهم أمم لا تعتمد على التخطيط والإعداد لما يعتورها

من أزمات، فهم أمة الإلهام فحسب، ومن هنا يبدو تصنيف الجاحظ وميله إلى الشفاهية والحفظ مرتكزاً مهماً في تناوله لتلك الصفات بالتكريس لها في ثقافة العرب خاصة دون غيرهم.

في الموروث العربي تبدو صفة الحفظ وسعة الذاكرة رائجة في كتابة السير، وهما صفتان رئيستان داعمتان للنسق الشفاهي؛ إذ يسهم هذا النسق في الترويج لصفات الحفظ والذاكرة وتأسيس فاعلية الشفاهية ومن ثم في تقليص دور الكتابة، ومما يميز كافة المشتغلين بفروع المعرفة المختلفة أنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء والموسوعية والحفظ، وهو الأمر الذي يجعل الثقافة تنحصر بين مفهومي الحفظ أولاً والكتابة ثانياً.

ويعود بعض الاهتمام بوضعية الثقافة تلك إلى تيار تشكل مع مطالع الثقافة الإسلامية التي ثبتت مفهوم الكتابة لكل ما هو مقدس، فقد ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قوله لأبي طالب في حادثة حصار الشعب: "يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان"(٤٤).

وعلى ذلك نستدعي حكاية مساندة على الرغم من اختلاف البعد الزمني بين النصين وهي حكاية التابعي بشر الحافي الذي اشتغل أول أمره بالحديث، ولكنه لم يجز لنفسه الرواية، ودفن كتبه لأجل ذلك، ويقال إن السبب في توبته يعود إلى أنه "أصاب في الطريق ورقة وفيها اسم الله تعالى مكتوب؛ وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيب بها الورقة وجعله في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يا بشر، طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة، فلما تنبه من نومه تاب"(٤٥).

ويقوم استدعاء حكاية الحافي على ذلك التوازي بين المكتوب والمروي وقد تم ذلك باستحضار قيمة المكتوب المقدس الذي يتصل باسم الجلالة، وكأن ذلك متصل بما ورد عن "عبدالله بن عباس"؛ إذ نهى عن الكتابة لما جاءه رجل فقال:"إني كتبت

كتاباً أريد أن أعرضه عليك فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء، ولما سئل في ذلك قال: إنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم"(٤٦). واتبع خلفاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – النهج نفسه، فقد روي عن "عمر بن الخطاب" أنه أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله، فأشاروا عليه أن يكتبها، لكن الحادثة لم تنته عند هذا الحد، فقد طفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله فقال:"إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً"(٤٧).

لقد أسهم هذا التيار في الرفع من مكانة الحفظ والتناول الشفاهي كآلية مباشرة للتعلم. وتوالت حوادث الإتلاف في السياق نفسه، ومن ذلك قيام عروة بن الزبير بإحراق كتب له فيها فقه كتكريس لتلك الآلية، ثم قال: "لوددت أني كنت فديتها بأهلي ومالي"(٤٨). هذا ما حدث في مجتمع حضري كان من الممكن أن يكون مجتمعاً مهتماً بالكتابة والتدوين، أما مجتمعات البداوة فلم تكن أفضل حالاً، فهناك حوادث قديمة ربطت الكتابة بالموت، ولعل صحيفة المتلمس القديمة التي أشرنا إليها، تؤكد مبدأ يقر بأن المكتوب رسالة منقوشة بالحتف، وبأن حامل المكتوب حامل لحتفه ومصيره الموت من أدلة رفض العرب للكتابة والمكتوب. لذلك قذف المتلمس رسالته في وسط النهر، ليمحو المكتوب وينجو، بينما مات طرفة لأنه لم يمح المكتوب، ولم يغسل رسالته بالماء.

ومع وجود طبقة من كتاب الوحي بعد ظهور الإسلام، كانت الكتابة في بعض الأصقاع منقصة، إذ يُعاب على البدوي أن يكون كاتباً، فقد كان الشاعر ذو الرمة كاتباً يخفي ذلك، ويتحرج منه، إذ كان يعلم الصبيان في البادية، ويكتم الأمر عن أهاليها، ويعكس ذلك اتجاهاً قوياً في الموقف من الكتابة.

أما النسق الثقافي الآخر فقد تمثل في إلغاء الذاكرة الشفاهية بوصفها تابعة للذاكرة المكتوبة، وذلك بعد شيوع التدوين والوراقة، لتبدو الذاكرة المكتوبة موازية

لذاكرة شفاهية تنفعل بها وتتأثر، وقد راج هذا النسق بعد تدوين السنة وانتشار الكتابة والخوف من مساوئ الحفظ، وقد اهتم علماء الحديث بالتدوين للتدقيق في صحة الرواية، ولعل ما رُوي عن قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدثها عبدالله بن لهيعة أبرز دليل على ذلك، قبل أن يكثر الوهم في حديثه، ويعود ذلك إلى حادثة احتراق مكتبته، إذ استبعد من الرواة الثقات لإصابته بخلل عقلي نتيجة هذا الحادث سنة ١٦٩هـ فقيل عنه:"من سمع من ابن لهيعة قبل احتراق كتبه فسماعه صحيح، ومن سمع بعد احتراق كتبه فسماعه ليس بشيء"(٤٩). ومثل ذلك ما حدث لأبي حفص عمر بن علي بن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤هـ صاحب المؤلفات الكثيرة إذ "احترقت مكتبته بعد أن تعب في جمعها، وكان ذهنه مستقيماً قبل أن تحرق ثم تغيرت حاله بعد ذلك"(٥٠). ويذكر أن يوسف بن أسباط كان من سادات المشايخ، وقال عنه البخاري: "دفن كتبه فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي"(٥١). ومثله علي بن مسهر الذي كان من علماء الفقه والحديث فقد دفن كتبه ثم أصبح يسأل من حوله من العلماء(٥٢).

تشير الحوادث السابقة إلى مستويين من التأثيرات البارزة؛ فغياب الكتاب ينتج غياباً للذاكرة، ولاسيما لدى رواة الحديث، الذين يراهم الرواة مختلين بعد هذه الحادثة أو تلك؛ إذ صار المحدثون يقولون: من كتب عنه قبل احتراق كتبه فسماعه صحيح... لتصبح حادثة إتلاف الذاكرة المكتوبة سبباً مباشراً في تغييب الذاكرة الشفاهية، إلا أن هذا النسق كان التيار الأقل انتشاراً في الثقافة.

٢ – الكتابة والوراقة:

نشأت الوراقة في مجتمع عربي يرى الشفاهية الوجه المشرق في العلم، واقترنت الكتابة والوراقة كمفهومين يبدوان مؤتلفين ويدعم بعضهما البعض؛ فازدهار الوراقة منتج طبيعي لتطور الكتابة، غير أن الكتابة بدت مفهوماً مضاداً للتغييب الذي أصاب الكتاب العربي عبر السنوات والذي يتعاضد تغييبه التام مع قواعد الشفاهية كما أسلفنا، كانت الكتابة متعاضدة مع الوراقة بوصفهما عنصرين

فاعلين في حركة الثقافة، إلا أن الوراقة تحولت إلى عنصر سطو على الكتابة، فتحولا إلى عنصرين متضادين، يصل الأمر إلى أن ينقض أحدهما الآخر.

اتخذت الكتابة وضعها المزدهر في ثقافتنا مع صنعة الوراقة، وفي الوقت نفسه شكل ازدهار الوراقة وجهاً من وجوه الإغراء بإتلاف الكتاب الموجود بين يدي صاحبه مادامت قد وجدت منه نسخ أخر، وكما نلاحظ تنامي حوادث تغييب الكتاب وإتلافه مع ازدهار الوراقة. كلما ازدهرت الوراقة وانتشرت الكتابة زادت حوادث تغييب هذا الكتاب، وكلما كان الكتاب منسوخاً أكثر من نسخة فلا بأس على صاحبه أن يقوم بإحراقه أو إتلافه، أو تعطيل الاستفادة من النسخ التي لديه، وإذا كان ياقوت قد أشار إلى أن التوحيدي قد أحرق كتبه لقلة جدواها، فإن الروايات السابقة قد تشير إلى أن التوحيدي لم يكن ليحرق كتبه، ما لم يتوافر له علم بنسخها المتعددة في دور الوراقين وهو أحدهم، ولاسيما أن أغلب الكتاب كانوا يعملون بصنعة الوراقة بوصفها عملاً يدر دخلاً مناسباً، حتى إن بعض الأحياء القديمة في بغداد وغرناطة وغيرها من الحواضر كان يطلق عليها أحياء الوراقين.

وقد أخذت تقاليد الوراقة تفرض على العالم أو الكاتب اللذين يعملان بالوراقة وضعاً اجتماعياً يميل إلى أن يكون سلبياً على الكتابة والكتاب. إن الكتابة مرحلة متقدمة حاولت أن تلغي تسيد الشفاهية عند العرب القدماء، لكنها لم تفلح – آنذاك – في تحول الثقافة التي بنيت على قواعد شفهية ضاربة في العتاقة.

وتمثل الحكاية التالية تجسيداً واضحاً لوضع الكتابة والوراقة في عهود متأخرة، قال أبو حيان: "طلع ابن عباد عليّ يوماً في داره وأنا قاعد في كسر إيوان أكتب شيئاً قد كان كأدني به، فلما أبصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق: اقعد فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا، فهممت بكلام، فقال لي الزعفراني الشاعر: اسكت فالرجل رقيع، فغلب عليّ الضحك، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه؛ لأنه كان قال هذا وقد لوى شدقه، وشنج أنفه، وأمال عنقه، واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه، وخرج في تفكك مجنون قد أفلت من دير جنون، والوصف لا يأتي على كنه

هذه الحال، لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ، ولا يؤتى عليها باللفظ، فهذا كله من شمائل الرؤساء وكلام الكبراء، وسيرة أهل العقل والرزانة لا والله، وتربا لمن يقول غير هذا" (٥٣).

يحمل النص الحكائي السابق بذور ذلك الصراع الخفي والمفترض بين التوحيدي وابن عباد، متمثلاً في الصراع بين الكتابة والسلطة، ويمكن عدّ النص السابق تأكيداً صريحاً وصارخاً على غلبة بعض صيغ الأمر التي تحمل دلالات قمعية؛ إذ يمثل هذا النص انتصاراً لها من خلال صيغ الأمر المباشرة التي وردت في فعلين: أحدهما من الوزير كممثل للسلطة (اقعد)، وثانيهما من الشاعر كممثل للثقافة الشفاهية (اسكت)، وكلا الفعلين يمثل هرم القمع الدائم لأدوار الكتابة الفاعلة.

وكما لاحظنا فقد حرم التوحيدي بوصفه (كاتباً) من الرد الشفاهي المطبوع، على أن يقوم بالرد كما تورده الحكاية مؤجلاً؛ لأن السلطة قد كلفته ما هو شاق وصعب، وهو ما يشير إليه الفعل (كأدني).

ويأتي النص أيضاً تأكيداً لمقولة الجاحظ في رسالته حين ذم أخلاق الكتاب إذ يرى "أن الكتابة لا يتقلدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ".(٥٤) وربما برر هذا سبب تصنيف بعض الكتب القديمة؛ إذ يتم إعداد الكتاب بناء على طلب غير الكاتب، وذلك يقلل من أهمية الجهد المطلوب ويضعف من العلاقة بين الكتاب ومؤلفه، ويشتت تبني الكاتب لكتابه.

حين يتوقف التوحيدي عن الانتصار لنفسه في أثناء الحدث فإن ذلك لا يعني عجزه عن الرد، لكن الثقافة التابعة كما تشاء الثقافة المتمثلة في (الشاعر) أملت فرض الصمت عليه وتقبل الحال، ولذا كان تأجيل الرد ليكون كتابياً لا شفاهياً، بعيداً عن الحدث لا قريباً منه، مؤجلاً غير عاجل، ومرتكناً إلى عدد من الصفات الدونية. فالكاتب والشاعر، الموجودان مع ابن عباد، يشكلان تمثيلاً مزدوجاً لثقافة سائدة، وهما نموذجان صريحان إذ يشعران بتبعية المكتوب هنا لخطاب تمثله سلطة ابن عباد.

لقد أضافت الكتابة إلى صاحبها (الكاتب) عدداً من الصفات الغريبة عنه

كالجنون والشيطنة وغيرها، وإذا تأملنا أصل اشتقاق كلمة (ديوان) لأهل الكتابة نجدها تنبعث من قول كسرى لكتّابه لما رآهم بتلك الفطنة، حين قال لهم مبدياً إعجابه: "ديوانه، أي شياطين وجنون"[٥٥]. وقد يجمع الكاتب إلى ذلك صفةً أكثر غرابة، وهي صفة التزوير والاحتيال؛ فالكاتب كما وصفه بعض الباحثين "هو قبل كل شيء مزور، يستعمل الكتابات التي لا يمكن لغيره أن يفك رموزها، ويتنقل من كتابة إلى أخرى، ويؤثر على الأحداث بواسطة المكتوب وبواسطة الحيلة"[٥٦].

ولعلنا بالعود إلى المعاجم والغوص في دلالات المفردة (كتب) سنجدها تتضمن نوعاً آخر من التحايل، إنه التحايل على الفحل " كتبت البغلة إذا ضممت أشعريها (شفريها) بحلقة، ومن ذلك قول الشاعر العربي:

لا تـأمـنـن فـزاريـاً خـلـوت بـه على قلوصك واكتبها بأسيار[٥٧]

لا عجب – إذاً – أن يصر التوحيدي – آنئذ – أن يحرق كتبه ويغمسها في الماء، لتمر بمرحلتين من الإتلاف والتدمير الكلي؛ لكونه يرى تفوقاً للشفاهي على المكتوب، هذه الحالة تشكل له العودة المتوسلة من ثقافة الكتابة إلى ثقافة الشفاهية أو لنقل، إنه يسعى، من خلال منظوره، إلى الانتقال من الخاص إلى العام، ومن التبعية إلى القيادة، من العبودية إلى الحرية، ومن الشاذ إلى القاعدة في مفهوم الثقافة السائدة، ولن يبلغ التوحيدي هذا إلا بالتحايل على تلك الكتب، مع أنه ينظر إلى الوراقة بوصفها عمل شؤم، حيث يعتقد أنها مهنة تتصل بالخسارة أكثر من الربح، وكم رغب في تغيير تلك المهنة لكنه لم يفلح، فقدومه من بغداد عاصمة الوراقة واشتغاله بها يتيح لنا افتراض توافر كتبه في دور الوراقين ببغداد، ولذا فهو يعلل سبب خروجه من بغداد كما يلي: "إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة"[٥٨].

حرص التوحيدي على أن يغير جلده المنقوش بالحرف المكتوب إلى عباءة شفاهية مطرزة ينعم عليه بها ابن عباد، لكنه يجد المفاجأة، فالكتابة قدره المفروض

عليه بما تحمله من ذل وهوان لصاحبها، وكأن هذه الحادثة تشكل قاعدة أولية تؤسس عليها حادثة حرق الكتب التي نسبت إليه، إنها المرحلة الأولية للتخلص من الكتابة، وتبدأ المرحلة التالية بحرق كتبه، بغية أن تنفك عنه عقدة المكتوب، ولكن تلك العقدة تتواصل معه، وكأن الكتابة تصر على أن تتمسك بالتوحيدي في الوقت الذي ينأى بنفسه عنها.

٣ – الكتابة والعمران:

لو تأملنا الحكاية التي تؤصل للمثل العربي القديم (جزاء سنمار) لوجدنا العقوبة المهلكة التي استحقها سنمار في عرف نسق ثقافي يتوارى في الظل ويظهر لأول وهلة عند إنجاز عمل بناء، في حين يتجلى النسق الثقافي العام في ربط تلك الحكاية بأبيات شعرية:

جـزانـي جـزاه الـلـه شـر جـزائـه جـزاء سـنـمـار ومـا كـان ذا ذنـب

كان البناء سبباً في هروب النعمان من ملكه وفراره زاهداً في الدنيا، حين أخبره وزيره بأن هذا القصر الذي أطلق عليه (الخورنق) لن يدوم مع جماله.

لقد عاقبت الثقافة هنا كاتباً من نوع آخر، إنه الكاتب الذي أقام البناء المحكم، والملك الذي بني له القصر، فكما ارتبطت الكتابة بالموت في حكاية جاهلية سابقة هي حكاية المتلمس، ارتبطت العمارة بالموت أيضاً في حكاية أخرى تتزامن معها، وهي حكاية البناء (سنمار والملك النعمان)؛ وكما تتشابه الحكايتان يتشابه الموقفان، موقف الصاحب بن عباد من أبي حيان وموقف النعمان من سنمار.

وبين هذه الحكاية وتلك يتجلى الإصرار على الجمع بين الكتابة والعمران على هيئة تغييب الكتاب مع ربطه بالعمران، إذ اجتمعت الكتابة والعمران فيما يروى عن "النعمان بن المنذر" أنه أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ثم دفنها في قصره الأبيض. فلما كان المختار بن أبي عبيد نحو سنة ٦٧هـ، قيل له، إن تحت القصر كنزاً، فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار[٥٩].

ومع ذلك فقد قامت الكتابة التي تنامت بطيئة في الحضارة الإسلامية بدور المحافظة على تنمية العمران وازدهاره، وبما أن الكتابة نفسها قد شكلت الوعاء اللازمني الذي يحفظ ذاكرة الأمم من الاندثار، فقد كانت العناية بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط، وهي سبب ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة(٦٠).

ويعد "ابن خلدون" ذلك التنامي في الكتابة مقروناً بتنامي العمران "إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفَاق أسواق ذلك لديهما، فكثرت التآليف العلمية والدواوين، ومن ثمّ حرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران"(٦١). وينبغي هنا أن نراعي دلالة العمران الذي يشير إليه "ابن خلدون" في مقدمته، وهو العمران المتمثل في مظاهر الازدهار الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

ومن جانب آخر، فالكتابة في حال الانهيار والضعف لدى ابن خلدون مؤشر على سقوط الحضارة وهلاكها، يقول: "ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله"(٦٢). ويشير في موضع آخر إلى أن العرب أمة لا تجيد اختيار أمكنة المدن واختطاطها وضرب المباني، وضرب مثالاً على ذلك ما قاموا به في بداية تكوينهم حين أنشأوا مدينتي الكوفة والبصرة، "وانظر، لم اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم"(٦٣). وكأنه يشير إلى حادثة بناء الكوفة في كتاب "عمر بن الخطاب" – رضي الله عنه – إلى "سعد بن أبي وقاص" حين قال: "إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان"(٦٤). ونظراً لكون الكتابة أيضاً لا تقوم إلا بالاختطاط، فإن اختطاط المدن وإنشاءها يعد ضرباً من الكتابة على الأرض، كما تعد صناعة الكتاب ضرباً من إنشاء الأبنية، ولك أن تعقد ما شئت من أوجه التشابه القائمة بين تأليف الكتب وإنشاء العمران.

يشبه الكتاب المدينة في ملامح مختلفة انطلاقاً من مبدأ الضّم... فالكتابة ضمّ الشيء إلى بعضه، ضم الحرف إلى الحرف، والكلمة إلى الكلمة، والجملة إلى الجملة، والفصل إلى الفصل. وتقوم العمارة أيضاً على مبدأ الضم الذي يشمل ضم الحجر إلى الحجر خلال البناء، والجدار إلى الجدار، والغرفة إلى شقيقتها، والمبنى إلى الآخر... والحي إلى الحي.

لقد عبر الأدب العربي كثيراً عن ذلك التعالق بين الكتابة والعمران ولو على سبيل التصوير: "هكذا هو الكتاب، دار تكون كل نافذة بها حياً، كل باب مدينة، وكل صفحة زقاقاً؛ دار ظاهرية، ديكور مسرحي يرمز فيه للقمر بغطاء أزرق مشدود بين نافذتين ولمبة مضاءة"(٦٥).

إذا كان العربي قد قصّر، إلى حد ما، في اختيار المدينة وإنشاء المبنى بالجودة المطلوبة، كما يشهد بذلك أبرز علماء الاجتماع، فإن هذا التقصير – بلا ريب – سيجعل الكتابة في وضع مشابه في الثقافة العربية إذ ينعكس التقصير على كافة مظاهر الحياة لدى الإنسان العربي. ويعود السبب في هذا إلى أن الشفاهية في التخطيط للعمران التي بدأت بها الحضارة انعكست على تشكيل المدن العربية القديمة، وشفاهية العمران تابعة لشفاهية ثقافية؛ ولذا كانت المدن العربية كما يصفها "ابن خلدون" "لأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن، والله يحكم لا معقب لحكمه"(٦٦).

ولعل الكتابة والبناء مرتا بمرحلتين متشابهتين في أوائل عهد الدولة الإسلامية، إذ كانتا تمران بمراحل من التلف والتدمير السريع لضعف الصناعة إلى جانب الندرة والقلة، التي تحكمها قاعدة شفاهية عامة مؤسسة على أقوال شعبية سائدة، كثيراً ما تربط الكتابة بالبناء بوصفهما متكاملين، وتتواتر مدعمة بدقة الإيقاع السريع، كما تشابهت البدايات تتشابه النهايات؛ إذ تؤكد ذلك الأقوال السائدة في الثقافة الشعبية مثل: "الدنيا دنيا بدون، فرع بلا غصون، حيُّها يموت، ورزقها يفوت، ما بنيتم للخراب، وما عملتم في كتاب، مذخور إلى يوم الحساب".

كان النهي عن المغالاة في البناء والتطاول فيه عدا ما يُحتاج إليه هو السائد في بداية التشكيل الثقافي، وكان التقليص من دور الكتابة والكتاب هو السائد أيضاً. إن تحديد فاعلية العمران مرهون بفاعلية الكتابة. على سبيل المثال، ما نقله الطبري في تاريخه من إيقاف لمد البناء والاستزادة منه كما يلي "حين وقع الحريق في مدينة الكوفة المبنية بالقصب فاحترق ثمانون عريشاً، فاستأذن سعد بن أبي وقاص في البناء باللبن لتعرض القصب للاحتراق فرد عليه عمر، افعلوا، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة".[٦٧] لقد كرست هذه النصوص جميعها لرؤية سائدة في تلك الفترة في التعامل مع العمران والكتابة كوجهي عملة، إذ يبدو فعل المبالغة فيهما خطراً على الأمة وثقافتها.

٤ – الإنسان والكتاب:

قام الكتاب (الرسالة) عبر التاريخ مقام صاحبه، فالرسائل بجميع أنواعها الديوانية أو الإخوانية تمثيل لصاحبها، وتمثيل للسلطة الصادرة عنها، ومن هنا كان احترام الجميع – على سبيل المثال – لكتاب يصدر عن سلطة ما، كسلطة الخليفة أو الأمير.

للرسالة هنا رمزية التعبير عن تلك السلطة، وكأن الكتاب أو الرسالة يتحولان إلى صورة أخرى من صور السلطة، ولذا تحظى الطقوس المتصلة باستلام وتسليم الرسائل بين الحكام بالمتابعة والاهتمام، ولا يزال هذا الأمر موروثاً حتى اليوم؛ فرسائل الحكام لا يكفي أن تبعث إلى حاكم آخر فحسب، ولكنها تصل إليه مرفقة بمبعوث هذه الدولة أو تلك.

في العصر الحديث، تحرص وسائل الإعلام أن تبرز بالصورة لحظة استلام الرسالة وتسليمها، فالرسالة (الكتاب) في تلك اللحظة الإعلانية تمثل المركزية المطلقة للصورة أو الصوت الإعلامي، في الوقت الذي يقع فيه حاملها في هامش الخبر.

ومن اللافت أن نجد في المعجم مفردة الكتاب محمولة على الكتاب الذي فيه سر وأمانة، ويكره صاحبه أن يُطلع عليه غيره[٦٨]، ومن أولئك المحرومين؛ يحرم حامل

الكتاب (الرسالة) من الاطلاع على أغلب الكتب (الرسائل)، ويوازي ذلك ما يقوم به بعض المؤلفين الذين يحرصون على عدم إطلاع غيرهم على كتبهم وما ينتجونه.

تكتسب الرسالة تلك المركزية في اللحظة نفسها لتعلقها بالإنسان (المرسل) بوصفه موضوعاً لفاعل (الرسالة) وذلك بعد سقوط وتلاشي البناء الأولي لتلك العملية (الإنسان) فاعلاً، و(الرسالة) موضوعاً، ومع انتهاء تلك اللحظة يبدأ التداخل بين الرسالة وصاحبها، كما يتجلى في أوقات كثيرة التداخل بين الكاتب والمكتوب، هذا التداخل أباح للمبدعين في جميع الثقافات أن يصفوا الكتاب كجليس مفضل لديهم، وأن يبالغوا في ذلك التشبيه بينه وبين الإنسان، وكلما زادت نسبة التقارب بين الإنسان والكتاب زادت إمكانية تعريضه للتلف ولاسيما الإحراق.

كانت طبيعة العرب المعروفة تشخيص الأشياء من حولهم كالنخلة والصحراء ومعاملتها كإنسان، فقد عومل الكتاب كإنسان يتحدث ليؤثر على المستوى الفردي والجماعي، هو أشبه بإنسان يتحدث ليؤثر، ولعل المتنبي أحد الشعراء الذين تغنوا بأهمية الفروسية والكتاب في بيته المشهور:

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وإذا كان المتنبي قد وصف الكتاب في حال الرضا من الإنسان نفسه، فقد وصفه الشاعر الإنكليزي "جون ميلتون" في وضع آخر بقوله: "يكاد قتل كتاب يعادل قتل إنسان، فالكتاب الجيد هو دم الحياة الثمين"[٦٩]. ذلك ما حدث على مستوى العلاقة الفردية بين الكتاب والإنسان، فماذا عن العلاقة بين الأمة والكتاب؟ واستتباعاً لذلك تنطلق تساؤلات أخر، ومنها، لمَ كان الكتاب معرضاً دائماً للتدمير في صراع الأمم والحضارات، في حين يصون الغازون بقية الممتلكات ليتم نقلها إلى بلدان أخرى؛ وينعم بها الفاتحون الجدد؟

ومع أنه لم يكن هناك شك في دور العلم في تغيير الفكر والنهوض به، إلى جانب حاجات الأمم الغالبة إلى ثقافات الأمم المغلوبة فإن هناك الدافع الشديد والقوي الذي يجعل تلك الأمم تسارع إلى إتلاف كتب أمم مقهورة.

ولنا أن نعود لنتأمل في وضع الكتاب وعلاقته بالأمة، فالكتاب يتخذ منزلة بين المنزلتين؛ إذ هو يراوح في منزلته بين الذات والموضوعات المحيطة بها. إنه يعني المراوحة بين الموت والحياة، وهي المراوحة التي تولد شرارة التغيير، ولذا كانت الدينامية والحركية طابعه، هو ذلك الشيء الجامد الهامد الذي سرعان ما يتحول إلى كائن حي يحاور ويشاور وقد يملي أحياناً رغباته، ومن هنا كانت قيمة الكتاب والمكتبة حين تكون حركية الفكر وديناميته طابعها.

وتبدو العلاقة بين الكاتب والكتاب من جهة أخرى أكثر عمقاً من العلاقة القائمة بين الأب وابنه، ولذا كانت الثقافة هي النتاج المركزي الأولي المهم للأمم، والعامل الفاعل في التغيير، ومن ثمّ نشأت تلك العلاقة الحميمية بين الكتاب والكاتب، والمكتبات والأمة. ومن المقايسة بين الولد والكتاب ما يورده الجاحظ، إذ كتب: "واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من ولده، أن يحسُن في عينه منه المقبّح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب نسباً من ابنه، وحركته أمس به رحماً من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت؛ وإنما الولد كالمخطة يتمخطها، والنخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك. ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته"[٧٠]. ومن هنا أيضاً كان إنكار حرق المؤلف كتبه، كما فعل صاحب التوحيدي حين أنكر عمل التوحيدي؛ لأن الكتاب يحمل تلك القيمة الجوهرية الدائمة والمتداولة بين الناس.

الكتاب ابن جدير بالرعاية، وأب جدير بالاحترام واتباع ما يرشد إليه، إذا تناسب ذلك مع الغايات العليا لإنسان. إنه الابن والأب في آن، فافتراض بنوته تأصيل لأبوته ودورها المتزايد. حين وضع الخليفة العباسي هارون الرشيد أساس بيت الحكمة، وأكمل "المأمون" بعده مشروعه كان هذا يعني تبني الأمة لمشروع ثقافي وليد جديد، ثم عمل "المأمون" على إمداد هذا المشروع بآلاف الكتب والمصنفات من مختلف الثقافات حتى يكتمل مظهران أساسيان: الأبوة والبنوة، وتظل هذه المكتبة قائمة، حتى استولى المغول على بغداد ٦٥٦هـ فأتلفت وأتلف غيرها من مكتبات بغداد آنذاك.

ولّدت هذه العلاقة المتنامية بين الكتاب بوصفه (ابناً وأباً) والكاتب (بوصفه أباً) التي يوازيها في مستوى أشمل علاقة أخرى هي المكتبة (الابن والأب) والأمة (الأب)، أنتجت ذلك الاندفاع الشديد من أمّة (أب) إلى تدمير وإتلاف مظاهر البنوة التي يحتمل أن توجدها حضارة أخرى، فاستئصال الكتاب والمكتبة هنا استئصال منطقي كلي تفرضه مظاهر الوضع الجديد لكل ما يمكن توقعه من مظاهر العود العرقي المتشكل من أب وابن، ولاسيما إن كانت العلاقة علاقة أكثر من تلك العلاقة الشرعية بين الأب والابن كما يراها الجاحظ.

لقد ولدت هذه العلاقة التي تبدو أكثر حميمية والتصاقاً ما يمكن تسميته (حركية الفكر)؛ فالكتاب (الابن) يظل عنصراً لعملية تغيير شاملة جزئية يتوسل إليها الكتاب. ومن هنا كانت عمليات التغيير محور تأمل من معارض كثيراً ما يقع في الضفة الأخرى يرصد تطلعات الفاعل (الكتاب) نحو موضوعه (التغيير).

وتنبغي الإشارة إلى كون الصراع يظل أبرز مبادئ الوجود؛ إذ يحدث الصراع من أجل الغلبة، فكان ظهور الحكمة في أسمى وسائلها وهي وسيلة الكتاب، برز الكتاب كمفتاح سحري يفضي إلى علاج تلك الصراعات، ولكن تتضاءل قيمة ذلك المفتاح، ويبدو أداة لا حاجة إليها في ظل الغلبة والقهر؛ حيث تتزايد فرص تغييبه وانتفاء وجوده.

لقد كتب "ابن خلدون" حول تلك الظاهرة التي عانتها المكتبة العربية حين دخل التتار بغداد، "وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم"[٧١].

لقد اتفق المؤرخون على عظمة الخراب الذي لحق بدور الكتب وفداحته التي زاد عددها في العصر العباسي، إذ كان في بغداد وحدها ما يزيد على ثلاثمائة مكتبة، إلى جانب دور الوراقين،[٧٢] امتدت يد الخراب إليها، ليس إلى بغداد وحدها ولكن إلى جميع حواضر العالم الإسلامي الشرقية آنذاك، كما يرد ذلك في رسالة "ياقوت

الحموي" حين يصف خراسان ".... إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب، والويل المبير والتباب" (٧٣).

وقد لقيت دور الوراقين بوصفها دور نشر الكتب القديمة حظاً كبيراً من ذلك التدمير؛ إذ حرص المغول على إتلاف الكتاب ومع أنهم قتلوا أعداداً كثيرة من المسلمين فإنهم لم يرموا أحداً من أهالي بغداد في دجلة، لكنهم رموا آلاف الكتب في الماء، لقد تحول ماء دجلة إلى لون السواد نتيجة حالة الإعدام الفكري الجماعي للكتب، ليصير الحدث هنا مظهراً آخر من مظاهر الجزع والحزن نتيجة تلك الكارثة التاريخية، وبعد أن كان السواد عمامة يرتديها الخلفاء وراية يتمترسون خلفها في العلو تيمناً باللون الموروث لهم لما عقد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعمه العباس راية سوداء يوم الفتح، أصبح اللون الأسود (الرمز) ساقطاً ومنخفضاً؛ فلا انخفاض أقل من مستوى الماء، أما النهر الذي كان يتمتع بصفاء المياه ونقائها بوصفه رمزاً لحالة استقرار وثبات دائمين، فقد أصبح لون السواد فيه علامة على تحول الاستقرار إلى عبث والثبات إلى سقوط.

ومع ذلك فقد كتبت الكتب نصاً جديداً بعد إعدامها، لتثبت قدرتها على الصراع، ولو كانت في حالة إلغاء وتغييب. إن تغييب الأشياء لا يصنع النسيان، فالموت لا ينسى بدفن الجسد، وكلما غيبت الأشياء زاد الحرص على اكتشافها واستنطاقها ومحاورتها في أوضاع جديدة.

لذا فلا يُنكر ما أدى إليه ذلك الإغراق من ثمرات؛ إذ بدأت مسيرة الاهتمام بالجمع المستمر والتدوين الدائم للكتب، وكان مركزه القاهرة كونها المدينة البعيدة عن أيدي التتار، وها نحن بعد مرور مئات السنين نتلمس قراءة لذلك النص الغريق الذي خطته كتب دجلة.

هناك أمثلة أخرى لحالات إتلاف كبرى تعرض لها الكتاب العربي، ولعل التغييب المادي الذي تعرض له الكتاب في الأندلس إثر خروج العرب منه أكثر فداحة؛ إذ أحرق "الكاردينال إكسيملس" في غرناطة ثمانية آلاف كتاب، وقد صدرت قرارات

عام ١٥١١م تقضي بأن تُباد كتب العرب من عامة البلاد الأسبانية، وتم ذلك في زهاء نصف قرن(٧٤). لكن هذه القرارات لم تصدر إلا بعد أن أبيدت معظم الكتب العربية، حيث بدأ الإتلاف فعلياً لقوائم الكتب العربية والعبرية، تم ذلك بعد طرد الأقلية اليهودية من الأندلس في نفس الفترة التي بدأت من ١٤٩٩م. وقد جسدت رواية الكاتبة المصرية رضوى عاشور "ثلاثية غرناطة" هذه الأحداث بصورة معمقة(٧٥).

ومن الجدير الإشارة إلى أن هذه الظاهرة تنمّ عن سلوك طالما انطلق منه المنتصرون وهو المبالغة في الإلغاء الفكري للمهزوم، وعدم جني ثمار الحضارات الجاهزة، في حين أفادت مراحل الاستعمار الحديث فوائد جمة بتغييرها لسياساتها إزاء الثقافة فقامت بنقلها إلى عواصمها.

إن التأمل في حوادث إتلاف الكتاب ومعاملتها يُفضي بنا إلى وجه آخر من وجوه التأويل، الذي يتجلى في عادة اعتماد آلية إتلاف الكتاب وتغييبه ضمن تلك العقوبة باعتبار النار المصدر الأفضل لعقوبة تصل بين السماوي والأرضي والمقدس والدنيوي ولدورها الأكبر في فعل التطهير، لقد أدرك ابن عباس ذلك في حكاية أوردها الذهبي: "حدثنا أيوب بن عكرمة، أن علياً حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال، لم أكن لأحرقهم أنا بالنار، إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: لا تعذبوا بعذاب الله، وكنت قاتلهم لقوله – صلى الله عليه وسلم –: من بدل دينه فاقتلوه. فبلغ ذلك علياً، فقال، ويح ابن أم الفضل، إنه لغواص على الهنَات"(٧٦).

ونلمح في رواية "دون كيخوته" للإسباني "ميجيل دي ثربانتس سافيدرا" مثل هذا التعامل مع الكتاب في إسبانيا، حين تقول ابنة أخيه عن مكتبته قبل تعريضها للحرق، إذ تصف الكتب في حال السخط: "ولتحرق هذه الكتب الملعونة، وكم منها يستحق أن يحرق كما أحرق أصحاب البدع، قال القسيس، وهذا رأيي أيضاً ولن يمضي غد دون أن نلقي بها طعمة للنار ونحكم عليها بالإعدام حرقاً"(٧٧).

وبما أن بعض الكتب استحقت التعذيب وكان جزاؤها النار، فإن بعضها يستحق الرحمة والتخفيف من ذلك العذاب، وهو ما يرد في النص عينه، حين يضع

الإنسان نفسه في موضع المعاقب أو المتجاوز "ومن يدري لعل فيها من لا يستحق عذاب النار... قالت ابنة الأخ، كلا لا ترحموا أحداً منها؛ لأنها جميعاً اشتركت في الجريمة... هذا أول كتاب في الفروسية، طبع في إسبانيا وسائرها منه نشأ، وعنه صدر. لهذا أرى من الواجب الحكم عليه بالإحراق دون شفقة بوصفه مؤسس هذه الفرقة اللعينة... فأجابه الحلاق، هذا كتاب مغامرات إسبلنديان، الابن الشرعي لأماديس الغالي... فقال القسيس، حاشا لله أن نحسب للابن فضائل الأب. فهيا يا سيدتي الخادمة افتحي النافذة وألقي به في الحوش. إنه أول الكومة التي سنضرم فيها نار الفرحة. ففعلت الخادمة ما أمرت به وهي قريرة العين. وهكذا طار إسبلنديان المسكين إلى الحوش ينتظر في استسلام النار التي تهدده. فقال القسيس: غيره! فقال الحلاق: ما بعده "أماديس اليوناني"، وأعتقد أن جميع الكتب التي في هذه الناحية من نسل أماديس"[٧٨].

لا يتطابق مثل هذا الأمر الذي تصفه الرواية على الكتاب والإنسان في مشهد الثقافة الغربية فحسب، ولكنه يمتد إلى ثقافتنا العربية أيضاً؛ إذ حدثت بعض الأحداث عن حرق كتب واقعية تحمل تقنيات المشهد السردي السابق نفسه أو لعلها تقاربه، في عصر الخليفة العباسي الناصر لدين الله، الذي تولى الخلافة في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل السابع، اتهم أحد العلماء البارزين وهو عبدالسلام بن عبدالقادر بن أبي صالح البغدادي المدعو بالركن، ومن تهمه أنه معطِّل، وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة، وكان عبدالسلام قد قرأ علوم الأوائل وأجادها، واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع. فأَوقعت الحِفظةُ عليه وعلى كتبه، ووجد الكثير فيها من علوم القوم، وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة، وأن تحرق بحضور الجمع الجم فيها، ففعل بها ذلك، وأحضر لها "عبدالله التيمي البكري" المعروف بابن المارستانية؛ إذ خطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم، وذكر عبدالسلام بِشرٍّ، وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً؛ فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار. ويذكر راوي هذه القصة أن الحكيم الإسرائيلي يوسف البستي أخبره قال: كنت ببغداد يومئذ تاجراً، وحضرت المحفل

وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب "الهيئة" لابن الهيثم وهو يشير إلى الدائرة التي مثل بها الفلك، وهو يقول، وهذه هي الداهية الدهماء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء، وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها في النار. قال، استدللت على جهله وتعصبه إذ لم يكن في الهيئة كفر، وإنما هي طريق إلى الإيمان ومعرفة قدرة الله – عز وجل – فيما أحكمه ودبره، واستمر الركن عبدالسلام في السجن حتى أفرج عنه سنة ٥٨٩هـ، وأعيد عليه ما كان له[٧٩].

ويتعالق الكتاب بالإنسان من وجه آخر، حين نلاحظ أن حوادث وفاة الكاتب قبل انتهائه من بناء عمله متكاملاً تؤدي آلياً إلى الإتلاف الكلي أو الجزئي للكتاب، وعلى ذلك فالعلاقة بين الكاتب والكتاب تظل مستمرة حتى الانتهاء من تبييضه، أما إذا كان مسودة فحسب فالعلاقة تظل متواصلة ووشيجة، هذه العلاقة تنتهي بما يحدثه الموت من فراق يمنع المؤلف من إكمال عمله لتبدو هذه صورة أخرى من صور علاقة الكتاب بالإنسان؛ إذ يكون الكتاب خديجاً، يحتاج إلى جهد المتابعة والاستكمال، فتنجلي تلك الجهود المضافة، وهي أقل من مستوى الكتاب الأصلي، ويمكن التمثيل على ذلك بكتابين مختلفين في هذا السياق؛ الأول لكتاب تم استكماله بعد وفاة صاحبه وهو كتاب "الصحاح" للجوهري "كان الجوهري قد صنف كتاب "الصحاح" لأبي منصور عبدالرحيم البيشكي، وهو من أهل الرياسة والجلالة والعظمة، وسمعه منه إلى باب الضاد المعجمة، واعترى الجوهري وسوسة فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيها الناس، إني عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه، فسأعمل للآخرة أمراً لن أسبق إليه، وضم إلى جنبيه مصراع باب، وتأبطهما بحبل، وصعد مكاناً علياً من الجامع، وزعم أنه يطير، فوقع فمات، وبقي بقية الكتاب مسوّدة غير منقحة، ولا مبيضة، فبيضه أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق، تلميذ الجوهري بعد موته، فغلط فيه في عدة مواضع غلطاً فاحشاً"[٨٠].

أما المثال الثاني فهو لكتاب لم ير النور بعد وفاة صاحبه؛ إذ لم يستكمله أحد فلحق الكتاب بصاحبه، وذلك ما أشار إليه "السخاوي" عن كتب "أحمد بن يوسف السكري"؛ إذ شرع في جمع تاريخ للرواة، لو قدر له أن يبيض لكان مائة مجلدٍ، جمع

مـنه في مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حصر، ولم يقدر له أن يبيضه ومات فتفرقت مسوداته، ولعل أكثرها عمل بطائن للمجلدات، ومثله الواقدي الذي جعلت بعض كتبه ظهائر للكتب بعد وفاته(٨١).

وتجدر الإشارة إلى ما ترسخ في المخيال الثقافي حول العلاقة بين الكاتب والكتاب في حضارات الشرق الأوسط القديمة؛ حيث المبدأ القديم المرتكن إلى طقس التضحية بالأبناء، إذ يمكن أن تبدو تلك التضحية من مؤلف بكتابه بقايا مظهر من مظاهر التدين، ولاسيما أننا تعرفنا فيما سبق كون الكتاب يظل امتداداً شخصياً لصاحبه وبخاصة قبل أن يتداوله الناس، وكأن في ذلك التطهير المرتجى للنفس البشرية من خطاياها المتتالية، وإذا كانت التضحية بالكتاب بوصفه ابناً رمزياً اتخذت مظهر الدفن كونه الوضع الملائم والمناسب، فقد سجل لنا التاريخ الإسلامي بعض مظاهر دفن الكتب، ومن هؤلاء سفيان الثوري الذي أوصى بدفن كتبه، وكان قد ندم على أشياء كتبها عن قوم، وقال:" حملني على ذلك شهوة الحديث، وبشر بن الحارث الذي كان يذمّ نفسه فقد كان رأساً في الورع والإخلاص، ثم إنه دفن كتبه "(٨٢).

ويتأكد ذلك حين يكون الغسل بالماء بوصفه نوعاً من أنواع الإتلاف المباشر والأخف أثراً، فقد روي أنه مرض الفقيه أبو زكريا مرضاً شديداً "فأمر أحد مريديه بإحضار كتاب من كتبه، فأحضره، وأمره بحلِّه في الماء، فقال له لمَ يا سيدي؟ فقال: أخاف ألا يفهمه أحد يأتي بعدي فيكون سبباً إلى ضلاله "(٨٣).

وقد يكون حرق الكتب وصية المؤلف الأخيرة كالدفن والغسل، كما فعل أبوبكر الجعابي المتوفى سنة ٣٥٥هـ الذي قال عنه "أبو بكر البرقاني": "صاحب غرائب ومذهبه معروف في التشيع، وقد حكى عنه قلة دين وشرب، والله أعلم، ولما احتضر أوصى أن تحرق كتبه فحرقت، وقد أحرق معها كتب كثيرة كانت عنده للناس "(٨٤).

٥ – تعدد مستويات المعنى:

يظل الغموض الذي يعتري النص وتعدد مستويات المعنى فيه واختلاف تلك المستويات سبباً في انقسام المتلقين واختلافهم، ومن ثم تعريض الكتاب للمصادرة أو

الإتلاف، فحين يحقق الكتاب المستوى الأولي والمباشر من المعنى تتحقق السطحية والمجانية لمتلق أو متلقين ضمن فئة تفضل تكريس همّها في إطار ذلك المستوى؛ الأمر الذي يسمح بإصدار أحكام متسرعة من أولئك المتلقين، ويظل القارئ النموذجي كما يرى (إيكو)، أو القارئ المستهدف غائباً عن أطروحة الكتاب المركزية، ويعود السبب في ذلك إلى أن الكتاب الملتبس يوشك أن يعرض معنيين: أحدهما ظاهر حرفي، والآخر رمزي باطني، على الرغم من أن القراء الحاذقين سيدركون المعنيين، إلا أن القراء الساذجين سيقفون عند المستوى الأول وهكذا سيضِلون[٨٥].

ويولد هذا الانقسام الحاد في أدوار المتلقين الذي ينتج من تعدد مستويات المعنى ظاهرة ثقافية يمكن أن نسميها (تفاوت مستويات التلقي)، وذلك عائد إلى أبعاد متنوعة؛ أهمها ما يمكن تسميته ظاهرة (التفاوت الثقافي). وتظهر آثار التفاوت الثقافي السلبية على السلطة المحورية، إذ يتبدى ذلك التفاوت خطاباً مستهدِفاً (بكسر الدال)، ويتم ذلك الاستهداف من خلال تلك النماذج الفاعلة في النص الواحد أو النصوص المتعددة.

أما الكتب التي لا تزيد على مستوى واحد فإنها لا تخرج عن دائرة تلك الكتب التي تتوضع في كونها كتباً بريئة، هدفها التسلية وقضاء الوقت، ولهذا فإن مثل هذه الكتب قد نجت من الإحراق روائياً، على سبيل المثال بمعاقبة مكتبة (دون كيخوته) بالحرق في العمل الروائي: "هذه لا تستوجب الإحراق كغيرها؛ لأنها لا تؤذي ولن تؤذي أذى كتب الفروسية إنها كتب للتسلية البريئة، لا خطر منها على أحد"[٨٦].

الإنسان ميال بطبعه إلى البسيط لا المركب، والهش لا الصلب، ولذا تروج في كل المجتمعات، ولاسيما لدى العامة، كتب التسلية البريئة التي لا يزيد تأثيرها على ابتسامة أو سعادة مؤقتة تزول عندما يتم الانتهاء من القراءة، وكأن القراءة لتلك الكتب ذات المعنى المباشر والسطحي هي التي تمنح تلك الكتب النجاة من الإتلاف، هذا ما التفت إليه الجاحظ: "إن الناس قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم، إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها، ألا ترى أن كتاب

"المنطق" الذي قد وسم بهذا الاسم، لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب، لما فهموا أكثره"(٨٧).

وفي حال إصدار المؤلف لكتاب له يتميز بتعدد مستويات المعنى كما فعل عبدالله بن المقفع في "كليلة ودمنة"، وما حدث لمؤلفات المعري، فمن المعتاد أن تفقد مثل هذه الإصدارات براءتها لدى المتلقي(٨٨).

للدلالة دور كبير في إتلاف الكتاب وتغييره وتنبع هذه المسألة من التركيز الأكبر على الجانب الشفاهي في بداية تكوين الحضارة الإسلامية؛ إذ حرص بعض الناس على اقتناء الكتاب ذي الدلالة المباشرة واعتبرت الدلالات المركبة خطراً يهدد المقتنين قبل الكتاب.

توظف الفلسفة قابليتها لتناول مستويات متعددة للمعنى ما أدى إلى نشوء قاعدة طردية، هي: حيثما ازدهرت الفلسفة في العالم الإسلامي كثرت حوادث الإتلاف والتدمير المادي للكتاب، وهو التدمير المنبثق من رغبة في الإقصاء المعرفي الدائم. فالأندلس والمغرب العربي حاضرتان ازدهرت فيهما الفلسفة، وتزايدت معها حوادث إحراق كتب الفلسفة، فعندما حضر عبدالله بن مسرة القرطبي إلى الأندلس في عهد "عبدالرحمن الثالث" يحمل كتب الفلسفة الطبيعية أحرقت كتبه أمام عينيه. على سبيل المثال، كان المنصور بن أبي عامر من المهتمين بأمور الجهاد والغزو، ولما فشا بين العامة اتهام كل من يشتغل بالفلسفة أو يعرف بمذهب من مذاهبها حتى في الشعراء أنفسهم "جمع الفقهاء لتكون كلمتهم على العامة بالسكوت ثم كتبت الكتب من المنصور بن أبي عامر إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم، وبإحراق كتب الفلسفة، مع ميله الشديد إلى الفلسفة، وإنما فعل ذلك ليتقرب بها إلى العامة"(٨٩).

ومع أن الغزالي قد شن هجوماً على الفكر الفلسفي في كتابه "تهافت الفلاسفة" فقد أحرقت كتبه على يد سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين المتوفى سنة ٤٩٣هـ، كان هذا الأخير ذا نزعة دينية تخالف نزعة الغزالي، وكره منه

إفراطه في الدعوة إلى محاسبة النفس، فأصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى بأن الغزالي مبتدع وزنديق، ومن ثم أحرقوا كتابه الشهير "إحياء علوم الدين" في قرطبة على مرأى من الناس، وفرضت عقوبة الإعدام على كل من يقرؤه(٩٠).

بازدهار الفلسفة بعد ذلك مع ابن طفيل وابن رشد ازدهرت عمليات الإتلاف للكتاب الفلسفي فقد مر "أبو الوليد بن رشد" بمحنة حرق كتبه، "إذ أمر "أبو يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن" المتوفى سنة ٥٩٥هـ، الحاضرين بلعنه، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة، وإبعاده، وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم، وكتب عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة، وأمر بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة. ولما رجع أبو يوسف إلى مراكش نزع عن ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه"(٩١).

إن محاربة العامة للفلسفة في أديم سلطة الخلافة لم تكن مقصورة على المغرب والأندلس؛ فقد تأسست في المشرق العربي فكرة اضطهاد الفلسفة والفلاسفة الذين اتهموا بالزندقة، وذلك يأتي انطلاقاً من الرؤية التي ترى التناقضات سائدة في كتابات الفلاسفة، لكونها قد بنيت على الجدل ولم تُبن على حب الحقيقة، فقد "نودي في بغداد عام ٢٧٩هـ أن لا يمكن أحد من القصاص والطرقية والمنجمين ومن أشبههم من الجلوس في المساجد ولا في الطرقات، وأن لا تباع كتب الكلام والفلسفة والجدل بين الناس"(٩٢).

كان القول السائد (من تمنطق فقد تزندق) منشوراً عاماً في شرق وغرب، فدخل العلماء في حكم الزندقة، وأصبحت نظرياتهم مرفوضة ما لم ترفق بتطبيق عملي وممارسة مشهودة، ولعل من أمثلة عدم الوثوق بآراء هؤلاء العلماء ما روي عن الرازي الطبيب المشهور:

"إن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي صنف لمنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح كتاباً سماه "المنصوري" لإثبات صناعة الكيمياء، وقصده به من بغداد، فدفع

له الكتاب فأعجبه وشكره عليه، وحباه بألف دينار، وقال له، أريد أن تخرج هذا الكتاب إلى الفعل، فقال له الرازي: إن ذلك مما يتمون له المؤن، ويحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة، وإلى أحكام صنعة ذلك كله، وكل ذلك كُلْفة، فقال له منصور: كل ما احتجت إليه من الآلات ومما يليق بالصناعة أحضره لك كاملاً حتى تخرُج عما ضمنته كتابك إلى العمل. فلما حقق عليه كعّ عن مباشرة ذلك وعجز عن عمله. فقال له منصور: ما اعتقدت أن حكيماً يرضى بتحليل الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة، يشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة. ثم قال له، قد كافأناك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب، فحمل السوط على رأسه، ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع "(٩٣).

ومن الأمثلة ما اتهم به العلامة "محمد بن الحسن الشيباني" صاحب أبي حنيفة عند أول قدومه إلى بغداد بأن معه كتاب الزندقة، فبعث الرشيد بمن يهجم على بيته، وحمل معه كتبه فأمر بتفتيشها، قال محمد بن الحسن:"فخشيت على نفسي من كتاب يوجد معي في الحيل، فقال لي الكاتب (المفتش) ما ترجمة هذا الكتاب قلت: كتاب "الخيل"، فرمى به ولم يحمله. صحف اسمه لأن كتاب "الحيل" بالحاء المهملة فصحفه بالخيل، فخلص مما أراد بنقطة واحدة"(٩٤).

٦ – الكتاب بوصفه مادة:

شكل الغلاف الخارجي سبباً من أسباب تغييب الكتاب وإتلافه، فكما للكتاب مضامينه التي تستحق التغييب لدى متتبعيها؛ والتي شكلت خطراً على هؤلاء، فله جانبه المادي الذي يمكن أن يشكل عامل إغراء مباشر؛ كونه يمثل جانباً آخر من المهتمين بالكتاب غير قارئه. كانت البداية التي يشير إليها التاريخ بوصفها نقطة التحول في تاريخ الكتاب بإضافة القيمة المادية إليه انطلاقاً من كتب الفلسفة؛ إذ تتجلى تلك العناية بالكتاب هنا بوصفه يمثل المصدر الأساسي لمشارب الفكر وينابيع الروح.

من هنا تبدو لنا أهمية القول بالبحث في تلك الحادثة التي أسست لأبرز عوامل

التغييب للكتب ولاسيما ما اتصل بالفلسفة منها، والتي ارتبطت بالذهب؛ إذ كان أول كتاب استحق أن يكتب بالذهب رسائل بوتاغورس المسماة "الذهبيات". "إن بوتاغورس أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تعرف بالذهبيات، وإنما سمي بهذا الاسم لأن جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاماً لها وإجلالاً"(٩٥). لقد أصبح ارتباط الفلسفة بالكتابة بالذهب أمراً مألوفاً، فكلاهما ثمين يدعم صنوه، وكلاهما يشكل الراقي والأعلى بين الأصناف التي ينتمي إليها، لذا كانت الحكمة موازية للذهب، به تكتب وتجلد بالجلد الفاخر والمرصع بالمعادن والأحجار الكريمة؛ الأمر الذي أدى إلى ضياع تلك المحفوظات الثمينة وضياع الكتاب.

وكما عرف القدماء قيمة الفلسفة؛ فهذا صاحب "الفهرست" يشير إلى القيمة العليا لكتب الفلسفة: "كانت الحكمة في القديم ممنوعاً منها إلا من كان من أهلها، ومن علم أنه يتقبلها طبعاً، وكانت الفلاسفة تنظر في مواليد من يريد الحكمة والفلسفة، فإن علمت منها أن صاحب المولد في مولده حصول ذلك له استخدموه، وناولوه الحكمة، وإلا فلا، وكانت الفلسفة ظاهرة في اليونانيين والروم قبل شريعة المسيح، عليه السلام، فلما تنصرت الروم مُنعوا منها، وأحرقوا بعضها، وخزنوا البعض، ومنع الناس من الكلام في شيء من الفلسفة؛ إذ كانت بضد الشرائع النبوية"(٩٦).

ولنا أن نتأمل في تلك الخصوصية المطلقة المتجلية في إضافة القيمة المادية التي منحت نوعين من الكتب انطلاقاً من الموضع أو انطلاقاً من الموضوع. والمقصود بالموضع المكتبة التي يوضع فيها الكتاب، وذلك يختص بمكتبات الخلفاء والأمراء والحكام المسلمين. أما ما كان منها للموضوع فذلك كالقرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الحكمة والفلسفة.

ونلحظ هنا واقع كتب الحكمة والفلسفة في المكتبة الإسلامية (الثمينة)، إنه وضع غريب أوقع تلك الكتب في حوادث الإتلاف التي ربما قصد بها استثمار شكل

كتب الحكمة والفلسفة المادي وإعادة إنتاجها بصورة جديدة تتواءم مع مكتبات الخلفاء والأمراء.

ويقتضي وجود تلك الكتب المذهبة مجتمعة في حيز مكاني واحد ما يغري بقبول القول بمعارضتها الصريحة للدين الإسلامي انطلاقاً من الشكل المادي ومشابهتها الشكلية للقرآن الكريم والحديث الشريف، ويدعم هذا الرأي بلوغ صناعة التجليد والتذهيب للكتب حد الرقي والازدهار في معرفة دقائق صنعة التجليد والتذهيب، وإحكام النقش بالفضة والذهب، والأصباغ الملونة والرسم وغير ذلك.

ومن المكتبات التي تعرضت للتدمير مع استثمار قيمة كتبها المادية، إذ دمرت وتم استغلال الكتب السليمة والمدمرة منها، خزانة كتب العزيز الذي ولي الحكم من سنة ٣٦٥ إلى ٣٨٦هـ، ويذكر صاحب كتاب "الذخائر" أنها كانت تتألف من أربعين خزانة في القصر، جملة ما فيها ثمانية عشر ألف كتاب، وأن عبيد المغاربة وإماءهم قد أحرقوا أوراق هذه الكتب، واتخذوا من جلودها نعالاً لهم، وذلك في سنة ٤٦١هـ وما بعدها إثر هزيمة ناصر الدولة بن حمدان أمام المغاربة، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب، فصار تلالاً باقية إلى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب[٩٧]. ويذكر أن العرب بالغوا في إنتاج الكتب المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة؛ ولاسيما مكتبات الخلفاء والأمراء، وقد انتقلت تلك الصناعة إلى القارة الأوروبية بعد الحروب الصليبية.

اغتيل الكتاب العربي الفاخر بسبب هذه الظاهرة مرات كثيرة، كان منها ما هو متصل بكتب الفلسفة والحكمة، ومنها ما استهدف لغلاء مواده التي شكل منها؛ تلك مرة، أما المرة الأخرى فقد اغتيل بنقله إلى المكتبات والمتاحف في أوروبا. ولم تكن الحروب الصليبية نهاية المطاف لاغتيال كهذا؛ إذ تناسلت صور الاغتيال الجماعي للكتب في فترة الاستعمار الأوروبي للعالم العربي خلال القرن الماضي، وتجسدت في نقل المخطوطات والكتب العربية ولا سيما النادرة أو الفاخرة منها إلى أوروبا، مع أن ذلك الصنيع يعد عملاً إحيائياً؛ كونه حفظ ذلك الموروث حتى اليوم من الضياع.

برع العرب المسلمون في فن التذهيب أو الكتابة بماء الذهب لنسخ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلى جانب كتب المنطق والجدل والحكمة؛ ولعل هذا ما يفسر دهشة الجاحظ حول ذلك الأمر: "وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض، وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أر كورق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطاً"[٩٨]. إذاً، فقد كان الزنادقة يهتمون بكتبهم انطلاقاً من كونها تعني لهم المصدر الأساسي للفكر، وذلك دعم لرؤية الجاحظ المشار إليها.

وقد رويت حادثة تاريخية تشير إلى اشتمال الكتاب على تلك المواد الثمينة وهو في حال الإتلاف، وهي الحادثة التي تشير إلى ما فعله الخليفة المقتدر بالله في النصف من رمضان سنة ٣١١هـ، إذ "أحرق بالنار على باب العامة ببغداد مائتين وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، منها ما كان صنفه الحلّاج وغيره، فسقط منها ذهب كثير كانت محلّاة به"[٩٩]. ومثل ذلك حادثة القبض على أحد أصحاب الحلاج وهو "ابن حماد" واقتحام منزله، وأُخذت منه دفاتر كثيرة، وكذلك من منزل "محمد بن علي القنائي" في ورق صيني، وبعضها مكتوب بماء الذهب، مبطنة بالديباج والحرير، مجلدة بالأديم الجيد[١٠٠].

وكما تعرضت كتب الزندقة الثمينة للحرق أو الإتلاف فقد احترقت بعض المكتبات الثمينة المخصصة للقرآن الكريم؛ فمن الحوادث اللافتة احتراق جامع أصفهان في الليلة السابعة والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٩٥ هـ، وبه من المصاحف الثمينة خمسمائة مصحف، من جملتها مصحف ذكر أنه بخط أبيّ بن كعب[١٠١].

خاتمة

تمت دراسة هذه الظاهرة ومحاولة استنطاق ملامحها عبر استقراء تلك النصوص السردية التي تواترت إلينا وقد تعددت مصادرها واختلفت حبكاتها، وذلك انطلاقاً من المحاور الأربعة الآتية: الكتاب (بوصفه وسيلة تأثير)، والكاتب (بوصفه مرسلاً)، والمتلقي (بوصفه موضوعاً)، والسياق المعتمد على الأوضاع السائدة. وقد أدى ذلك إلى حصر لتلك الأنساق التي بنيت عليها دراسة هذه الظاهرة في الحضارة العربية الإسلامية.

فما يتصل بالكتاب يبرز من الأنساق التاريخية المعروفة قوة الكتاب وقدرته على التأثير في المتلقي، وذلك في موضوعه أو في دلالات نصوصه، أو كونه يضم ما هو ثمين كالذهب والأحجار الكريمة والتجليد المتميز.

أما ما يتصل بالكاتب فهناك أنساق ساعدت على عمليات الإتلاف، ومنها تضخم نموّ الإحساس الفردي، والموسوعية والذكاء وقوة الحفظ، بوصفها صفات تساعد على تضخم الأحاسيس الفردية وتناميها، أو الضعف كصفة تمنع من حماية الكتاب، أو الهوس والجنون الذي يؤدي إلى هذا الإتلاف أو ذاك التغييب.

فيما يتصل بالمتلقي تتجلى عوامل، منها الرغبة في التطهير والإلغاء، وغلبة لغة الإقصاء، واختلاف مستويات التلقي، وشيوع مظهر القوة والسلطة، إلى جانب جدلية الحب والكراهية. ويتصل بالسياقات السياسية والثقافية غلبة الأمم والشعوب وصراع الحضارات، و تسلط تيار فكري على آخر، أو غلبة قبيلة أو أسرة على أخرى. وتأتي جميعها نتيجة صراع تم على ثلاثة مستويات: صراع ذاتي، وصراع داخلي، وصراع حضاري. لقد أسهمت هذه المنظومة من الصراعات في تكوين الظاهرة، غير أن هذه الصراعات لم تؤد إلى استجماع لحزم من العلاقات الكاشفة للأنساق الخفية التي تسري في جسد الثقافة، التي تتلمس أن تكون غائبة أو مغيبة، لذا فإننا توسلنا

إلى طرح الأمر وفق بعض المحاور المهمة التي يمكن أن تضمن كشف ما خفي وأُضمر من أنساق هذه الظاهرة.

كانت الأنساق السابقة: ذاكرة الكتابة/ ذاكرة الشفاهية، الكتابة والوراقة، الكتابة والعمران، الإنسان والكتابة، تعدد مستويات المعنى، الكتاب بوصفه مادة، تلك الأنساق التي عرضنا لها خلال هذا البحث، والتي أمكن لنا من خلالها استقراء الظاهرة بمنهج لا يركز على البعد التاريخي لكنه لم يستبعده، ولا يتجاهل البعد التأويلي لتلك الظواهر التي تراكمت عبر العصور. فالثقافة الشفاهية المنتجة لآليات الحفظ والذاكرة كان لها دورها الفاعل في التقليل من الدور المرجو للكتابة في العصور القديمة، لذا كانت هاتان الصفتان الملمح الرئيس في وصف العلماء والدارسين عند سرد سيرهم. وكان الإتلاف للكتاب آلية ما يمكن الاستعاضة عنه في الثقافة الشفاهية البدائية، إنها ممارسة تتسق مع البعد النظري السائد. ونقيض ذلك تماماً، أما الوراقة التي سادت خلال فترة زمنية من الأنساق التي ركز عليها الإتلاف، وذلك بوصفها علامة على انتشار مظهر ثقافي جديد، فقد كانت أبرز المظاهر الحضارية للأمة إلا أنها كانت أحد الأسباب الفاعلة في الخضوع لإغراء إتلاف الكتب في الثقافة العربية، فعلى سبيل المثال كانت رواية حرق كتب التوحيدي إحدى الروايات التي يمكن أن تحيلنا إلى هذه الظاهرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

أما الكتابة والعمران فهو نسق آخر يمكن أن يكون متصلاً مع إشكال الشفاهية التي تجمع بين الكتابة والعمران بوصفهما مؤسسين على هذا العنصر، ويمكن أن يكون منفصلاً في جانب التركيز على التحليل المعتمد على "مقدمة ابن خلدون" التي أشرنا إلى بعض تفاصيلها، لذلك كان النظر إلى الكتابة والعمران بوصفهما وجهي عملة، يُعتقد أنهما منتجان لأدوار سلبية في التأثير وخلق ملامح هذه الظاهرة.

أما محور الإنسان والكتابة فهو أحد الأنساق التي اعتمد عليها البحث، حيث النظر إلى الكتاب أو المكتوب بوصفه قائماً مقام الإنسان، ومتمثلاً دوره، إن تلك الرؤية

أدت إلى حالات إتلاف فردي وجماعي للكتب عبر القرون ليس في الثقافة العربية وحدها بل في غيرها من الأمم، وقد عقد البحث وجوهاً مختلفة للمقارنة بين الكتاب والإنسان لتحليل أحداث إتلاف تواترت في الثقافة.

إن تعدد مستويات المعنى محور مهم في هذه القضية، وسبب رئيس في انتشار حوادث الإتلاف، فالتعدد يثير سؤال العامة، ويفتح الطريق أمامهم للاعتقاد بخطر المكتوب وأثره المدمر، فالكتاب الملتبس يوشك أن يعرض معنيين، أحدهما (ظاهر حرفي) والآخر (رمزي باطني)؛ لذا تكون استجابة السلطة مباشرة مع الغوغائية أعداء المعنى الرمزي الذين ينادون بحرق الكتب أو إغراقها، وقد تكون السلطة نفسها المحرك الرئيس لهؤلاء الذين لا يدركون إلا المعنى الظاهر، وربما غاب عنهم فهمه. ثم كانت مادة الكتاب وغلافه الخارجي المحور الأخير الذي ينتج ثقافة الإتلاف للكتب في مجتمع ما، فالغلاف الخارجي الثمين وما ضمته مكتبات الخلفاء والأمراء من كتب ذات أغلفة ثمينة أنتج حوادث إتلاف كتب كثيرة في تراثنا القديم.

إن تسجيل الثقافة العربية لهذه المواقف الداخلية والخارجية التي تضمنت إتلاف الكتاب وتغييبه لا يعد علامة سلبية تدل على مهاجمة الثقافة للكتابة فحسب، ولكن تسجيل مثل هذه الأحداث التي نقرؤها الآن بعد مرور مئات السنين يمكن عده علامة أخرى موازية على تشكيل ثقافي منح التعددية حداً معقولاً بين أنساقه، ولذا فمن المبرر أن يأتي تأويل هذه الظاهرة مبنياً على تعددية أفرزت تلك النصوص السردية المتناثرة هنا وهناك، ولعل هذه النصوص تسهم في إثبات الظاهرة كمستوى مباشر من مستويات تلقيها، فالحاجة ماسة إلى إثبات الظاهرة قبل محاولات الغوص في تناولها النقدي، ليتم إثبات الظاهرة أولاً، ومن ثم مساءلتها وكشف علاقاتها ثانياً.

لقد آثرت هذه المساءلة للظاهرة أن تلج إلى العلل الظاهرة والكامنة فيها، ومع اختلاف علل التغييب والإتلاف للكتاب العربي، فقد تلمسنا هنا البحث في سياقات أخرى خفية، تتميز بطابع شمولي، حيث يمكنها استيعاب تلك الحالات التي سجلتها الثقافة. إلى جانب علل أخرى لها طابع التجذر والتعمق في بنية الخطاب العربي

المرتهن إلى الذهنية الحضارية للإنسان العربي قبل الإسلام وبعده، وكأن العربي تجسيد حيّ لإحدى شخصيات رواية "طفل الرمال" للطاهر بن جلون الذي كتب: "كانت حياتي مكرسة أساساً للكتب، فكتبتها ونشرتها، وأتلفتها، وقرأتها وأحببتها"(١٠٢).

الهوامش

١ – إسماعيل ابن كثير، **البداية والنهاية**، ط٣، جـ٢، بيروت، مكتبة المعارف،١٩٨١م، ص ٤٥.

٢ – Bertolt Brecht, *Poems 1913-1956*, London: Routledge, 1980, p. 294.

٣ – أبو عثمان الجاحظ، **الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام هارون، جـ ٥، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٨م، ص ٩٧.

٤ – غاستون باشلار، **النار في التحليل النفسي**، ترجمة: نهاد خياطة، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤، ص ٤٧.

٥ – المرجع السابق، ص ٣٧.

٦ – أحمد ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م، ص ٦.

٧ – عبدالرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، جـ ٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١م، ص ٧٦.

٨ – مجموعة من المؤلفين، **الموسوعة العربية الميسرة**، بيروت، دار نهضة لبنان، مجلد ٢، ص ١٧٣٤.

٩ – محمد قاسمي وشانتال داغرون، **عربي، هل قلت عربي؟ أحكام الغرب حول المسلمين والعرب خلال خمسة وعشرين قرناً**، ترجمة: فقيهي الصحراوي، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ١٩٩٨م، ص ٤٠.

١٠ – Umberto Eco, *Interpretation and Overinterpretation*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992, pp. 29-30.

١١ – إمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ترجمة: أحمد الصمعي، تونس، دار التركي، ١٩٩١م، ص ٥٢٢.

١٢ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ط٣، جـ١٥، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠م، ص ص ١٨–١٩.

١٣ – المرجع السابق، جـ ٦، ص ٢١٦.

١٤ – محمد ماهر حمادة، **الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً**، الرياض، دار العلوم، ١٩٨٤م، ص ٢٠٣.

١٥ – عبدالواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٨هـ، ص ٤٠٠.

١٦ – عبدالله الحبشي، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، الكويت، شركة الربيعان للنشر، ١٩٨٢م، ص ١١٠.

١٧ – أبو العباس بن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ٣، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٩م، ص ٤٤١.

١٨ – عبدالرحمن الجبرتي، **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، جـ ١، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص ٤٩٣.

١٩ – انظر: نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، تحقيق: إبراهيم اطفيش، القاهرة، مطبعة الشباب، ١٩٦١م.

٢٠ – Preserved Smith, *The Life and Letters of Martin Luther*, London: Routledge, 1968, p. 202.

٢١ – David B. Edwards, *Before Taliban: Genealogies of the Afghan Jihad,* Berkeley Los Angeles London: University of California Press, 2002, p. 218.

٢٢ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ١٧، ص ٦٦.

٢٣ – عبدالفتاح كليطو، **لسان آدم**، ترجمة: عبدالكبير الخطيبي، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٩٥م، ص ١١٥.

٢٤ – يوسف الحوراني، **البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم**، بيروت، دار النهار، ١٩٧٨م، ص ١٣٧.

٢٥ – ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ ٤، ص ١٠١.

٢٦ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ١٢، ص ١٤٣.

٢٧ – ابن قاضي شهبة الشافعي، **طبقات الشافعية**، جـ ٢، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ، ص ٣٦.

٢٨ – انظر: ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ١١، ص ٢٨٥.

٢٩ – عبدالله الحبشي، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، ص ١١٨.

٣٠ – Micheal Futrell, ''Banned Books in the Lenin Library,'' *Soviet Studies (Jan., 1959), vol. 10, no. 3, p. 280.*

٣١ – الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، جـ ١، تحقيق: يوسف العش، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤م، ص ١٢.

٣٢ – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ٣، ص ٤٦٦.

٣٣ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ٣، ص ٤٢٩.

٣٤ – ابن شبة، **تاريخ المدينة المنورة**، ص ٣٤.

٣٥ – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ٢، ص ١٥٨.

٣٦ – انظر ترجمته في (ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ ١٢، ص ١٧١. أو أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، جـ ٩، بيروت، دار صادر، ١٣٥٨هـ، ص ١٦٠).

٣٧ – أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، **الفهرست**، تعليق: إبراهيم رمضان، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٤م، ص ٢١٦.

٣٨ – أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ط ٢، جـ ٥، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م، ص ١٧٢.

٣٩ – أبو عثمان الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، جـ ٢، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٥م، ص ١٩١.

٤٠ – عبدالله إبراهيم، **السردية العربية**، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م، ص ٣٣.

٤١ – أبو عثمان الجاحظ، **الحيوان**، جـ ١، ص ٤١.

٤٢ – المرجع السابق، جـ١، ص ٤٧.

٤٣ – أبو عثمان الجاحظ، **البيان والتبيين**، جـ ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م، ص ١٣.

٤٤ – عبدالملك ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ٢، تحقيق: محمد علي القطب ومحمد الوالي بلطة، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٨م، ص ٢٦.

٤٥ – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ١، ص ٢٧٥.

٤٦ – حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م. وانظر أيضاً: صديق القنوجي، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، جـ ١، تحقيق: عبدالجبار زكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ١٧٧.

٤٧ – عبدالستار الحلوجي، **المخطوط العربي**، ط ٢، جدة، مكتبة مصباح، ١٩٨٩م، ص ٦٨.

٤٨ – شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ ٤، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مكتبة الرسالة، ١٩٩٣م، ص ٤٢٦.

٤٩ – انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ ٨، ص ٢٦.

٥٠ – عبدالله الحبشي، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، ص١٠٧.

٥١ – الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ ٩، ص ١٧١.

٥٢ – المرجع السابق، جـ ٨، ص ٤٨٦.

٥٣ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ١٥، ص ٢٦.

٥٤ – أبوعثمان الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، جـ ٢، ص ١٩١.

٥٥ – ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ط ٣، جـ ٢، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٩٩٧م، ص ١٠٢.

٥٦ – خالد زياد، **كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمثقفين**، لندن، دار رياض الريس، ١٩٩١م، ص ٩.

٥٧ – أبو بكر بن دريد، **كتاب الملاحن**، تحقيق: عبدالإله نبهان، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٦م، ص ٦٤.

٥٨ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ١٥، ص ٢٨.

٥٩ – مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ط٣، جـ١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٤م، ص ١٢١.

٦٠ – ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، جـ ٢، ص ٩٤.

٦١ – المرجع السابق، جـ ٢، ص ٩٥.

٦٢ – المرجع السابق، جـ ٢، ص ٩٦.

٦٣ – المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٣.

٦٤ – أبو جعفر الطبري، **تاريخ الطبري**، جـ ٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، ص ٤١.

٦٥ – الطاهر بن جلون، **طفل الرمال**، ترجمة: محمد الشركي، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٩٧م، ص ٧٢.

٦٦ – ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، جـ ٢، ص ٢٣.

٦٧ – أبوجعفر الطبري، **تاريخ الطبري**، جـ ٤، ص ٤٤.

٦٨ – محب الدين الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٤م، مادة (كتب).

٦٩ – John Milton, Francis Jenks, *A Selection from the English Prose*

Works of John Milton, Bowles and Dearborn, Harvard: Harvard University, 1826, Vol. 2, p. 22.

٧٠ – الجاحظ، **الحيوان**، جـ ١، ص ٨٩.

٧١ – ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٥، ص ١١٠٦.

٧٢ – علي إبراهيم النملة، **الوراقة وأشهر أعلام الوراقين**، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥م،

٧٣ – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ٦، ص ١٣٤.

٧٤ – مصطفى الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، جـ ٣، ص ٣٣٤.

٧٥ – رضوى عاشور، **ثلاثية غرناطة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٨م، ص ص ٤٧، ٢٩٣.

٧٦ – شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ ٣، ص ٣٤٦.

٧٧ – ميجيل دي ثربانتس، **دون كيخوته**، جـ ١، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دمشق، دار المدى، ١٩٩٨م، ص ٦٥.

٧٨ – المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٨.

٧٩ – محمد ماهر حمادة، **الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً**، ص ٢٠٥.

٨٠ – ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، جـ ٦، ص ١٥٧.

٨١ – الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، جـ ٣، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ص ١٥.

٨٢ – الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ ١٠، ص ٤٧٠.

٨٣ – كليطو، **لسان آدم**، ص ١١٣.

٨٤ – ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ ١١، ص ٢٦٢.

٨٥ – كليطو، **لسان آدم**، ص ١١٦.

٨٦ – ميجيل ثربانتس، **دون كيخوته**، جـ ١، ص ٧٢.

٨٧ – الجاحظ، **الحيوان**، جـ ١، ص ٩٠.

٨٨ – كليطو، **لسان آدم**، ص ١١٧.

٨٩ – عبدالواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ص ٣٠٦.

٩٠ – أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، جـ ٣، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٩م، ص٣٧.

٩١ – المرجع السابق، جـ ٣، ص ٤٣٧.

٩٢ – ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ ١١، ص ٦٤.

٩٣ – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ٥، ص ١٦٠.

٩٤ – عبدالله الحبشي، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، ص ١١٩.

٩٥ – ابن النديم، **الفهرست**، ص ٣٠٤.

٩٦ – المرجع السابق، ص ٢٩٩.

٩٧ – عبدالستار الحلوجي، **المخطوط العربي**، ص ١٠٨.

٩٨ – الجاحظ، **الحيوان**، جـ ١، ص ٥٥.

٩٩ – ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ ١١، ص ١٤٨.

١٠٠ – الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، جـ ٨، ص ١٣٥.

١٠١ – ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، جـ ٩، ص ٢٢٤.

١٠٢ – الطاهر بن جلون، **طفل الرمال**، ص ١٢٥.

المراجع

أولاً – المراجع العربية:

- إبراهيم، عبدالله، **السردية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ.
- ابن خلدون، عبدالرحمن:
  - مقدمة ابن خلدون، ط ٣، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٩٩٧م.
  - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن خلكان، أبو العباس، **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ابن دريد، أبو بكر، **كتاب الملاحن**، تحقيق: عبدالإله نبهان، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.
- ابن فارس، أحمد، **معجم المقاييس في اللغة**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، **الفهرست**، تعليق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك، **السيرة النبوية**، تحقيق: محمد علي القطب ومحمد الوالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، **الأغاني**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- أمين، أحمد، **ظهر الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

- إيكو، إمبرتو:
  - اسم الوردة، ترجمة: أحمد الصمعي، دار التركي، تونس، ١٩٩١م.
  - "العودة إلى الجذور المهجورة التأويل والتاريخ"، ترجمة: ناصر الحلواني، **مجلة القاهرة**، عدد ١٦١، إبريل ١٩٩٦م، ص ص ٢٤– ٤٢.
- باشلار، غاستون، **النار في التحليل النفسي**، ترجمة: نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤م.
- بن جلون، الطاهر، **طفل الرمال**، ترجمة: محمد الشركي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- ثربانتس، ميجيل، **دون كيخوته**، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دار المدى، دمشق، ١٩٩٨م.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر:
  - البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
  - الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
  - رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الجبرتي، عبدالرحمن، **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- الحبشي، عبدالله، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، شركة الربيعان للنشر، الكويت، ١٩٨٢م.
- الحلوجي، عبدالستار، **المخطوط العربي**، ط ٢، مكتبة مصباح، جدة، ١٩٨٩م.
- حمادة، محمد ماهر، **الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً**، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٤م.
- الحموي، ياقوت بن عبدالله، **معجم الأدباء**، ط ٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.
- الحوراني، يوسف، **البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم**، دار النهار، بيروت، ١٩٧٨م.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر:
  - تقييد العلم، تحقيق: يوسف العش، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٤م.
  - تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- خليفة، حاجي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مكتبة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.
- زياد، خالد، **كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمثقفين**، دار رياض الريس، لندن، ١٩٩١م.
- السالمي، نور الدين عبدالله حميد، **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، تحقيق: إبراهيم اطفيش، مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٦١م.
- الشافعي، ابن قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
- عاشور، رضوى، **ثلاثية غرناطة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.
- قاسمي، محمد، وشانتال داغرون، **عربي، هل قلت عربي؟ أحكام الغرب حول المسلمين والعرب خلال خمسة وعشرين قرناً**، ترجمة: فقيهي الصحراوي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- القنوجي، صديق، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، تحقيق: عبدالجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- كليطو، عبدالفتاح، **لسان آدم**، ترجمة: عبدالكبير الخطيبي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٥م.
- المراكشي، عبدالواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٨هـ.
- النملة، علي إبراهيم، **الوراقة وأشهر أعلام الوراقين**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٥م.

ثانياً – المراجع الأجنبية:

- Brecht, Bertolt. *Poems 1913-1956*, London: Routledge, 1980.
- Eco, Umberto. *Interpretation and Overinterpretation*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992.
- Edwards, David B. *Before Taliban: Genealogies of the Afghan Jihad*, Berkeley Los Angeles London: University of California Press, 2002.
- Futrell, Micheal. ''Banned Books in the Lenin Library,'' *Soviet Studies* (Jan, 1959), vol. 10, no. 3, pp. 280-296.
- Milton, John. And Francis Jenks, *A Selection from the English Prose Works of John Milton*, Bowles and Dearborn, Haevard: Harvard University, 1826.
- Smith, Preserved. *The Life and Letters of Martin Luther*, London: Routledge, 1968.

Hidden Interpretation: The Cultural Contexts of the Destruction of Books in Arab Islamic Civilization

Abstract

This research examines the phenomenon of the destruction of books in Arabic culture. It considers four common aspects of the phenomenon that appear in other cultures: burning, dumping, burial and cutting. Its main aim is twofold: to explore a number of aspects of this cultural phenomenon and to identify the contexts hidden within. To this end, three modes of the destruction of books are investigated: writing and burning, writing and dumping, and censorship. The attempted interpretation of these activities is based on two major questions: How have some Arabic books been frequently destroyed throughout history? What are the contexts that hide behind this phenomenon? The answer to the first question is based on a historical review and scrutiny of various events, while the second question is addressed by trying to uncover the hidden reasons for disregarding the supposed answer to the question of why they have been destroyed. Six contexts are identified as appearing to control this phenomenon: the memory of orality and of literacy, writing and bookshops, writing and construction, people and the book, multiple levels of meaning and the book as material.

Author:

Dr. Mageb Al-Adwani

- Ph.D. in modern literary criticism; thesis title "The Continuity of Traditional Literary Features in the Modern Arabic Novel: A Study in Intertextuality of Manchester, Manchester, UK. 2007.
- Associate Professor of Criticism and Theory. Vice Dean for Graduate Studies and Research, College of Arts, King Saud University.

Publications:

A- Books:

1 - The Son of Sarawi and the Villages Memory, ed. Ali Al-Dumaini, Jeddah, 1999.
2 - Al-Ghathami as a Critic, ed. Abdulrahman al-Ismail, al-Yamama Press, Riyadh, 2001.
3 - The Formation of the Place and the Shadow of Thresholds, The Literary Club, Jeddah, 2003.
4 - The Writing and the Erasing: An Intertextuality Approach in Novels by Rajaa Alem, Arab Diffusion Company, Beirut, 2009.
5 - Mirrors of Interpretation: A Critical Approach in the Classical Narrative, The Arab Cultural Center, Beirut, 2010.
6 - The Arabic Novel and Criticism, Arab Scientific Publishers, Beirut, 2010.
7 - Philosophical Papers, The Philosophical Circle, The Literary Club, Riyadh, 2010.
8 - The Emirate Narrative by Women, ed. Abdulfattah Sabri, Sharjah, 2010.
9 - The Journey of the Wise Men in the Game of Chess, (editing), Yahia ibn Abdulaah al-Hakim, Beirut, 2012. Arab Institute for Research and Publishing.
10 - The Example of Warfare in the Game of Chess, (editing), Ahmad ibn Abi Hajala, Beirut, 2012. Tilmisani, Arab Institute for Research and Publishing.
11 - The Renewal in Saudi Literature, The Journal of Taif University, Sarawat Press, Jeddah, 2012.
12 - The Formation and Meaning of Narrative Discourse, (ed.) Arab Diffusion Company, Beirut, 2013.

B- Articles:

1 - Classical Visions on the Text, Journal of Roots, the Literary Club, Jeddah, Number 2, 1999.
2 - The Aspects on Inner Place in Novels by Saudi Women, Journal of Signs in Criticism, the Literary Club, Jeddah, Number 33, 1999.
3 - Killing of Sinimmar, Journal of Roots, the Literary Club, Jeddah, Number 7, 2001.
4 - The Questions of Folktale, A Quarterly Review on Folklore, Doha, Number 61, 2001.
5 - An Intertextuality Trip to the Traditional Arab Perspectives on Text. Journal of Signs in Criticism, the Literary Club, Jeddah, Volume 11, Number 44, 2002.
6 - The Poetics of Closure, Journal of Approaches, Rabat, Number 2, 2008.
7 - Saudi Women: How They write their Autobiographies? Journal of Signs in Criticism, the Literary Club, Jeddah, Volume 17, Number 66, 2008.
8 - The Genre of Short Story: The Blindness and the Crisis, Journal of Dimensions, The Literary Club, Qasim, no. 4, 2009.
9 - A Critical Approach of the Traditional Arab Proberb, Journal of Fields, The Literary Club, Riyadh, Number 8, 2009.
10 - The Closures of Selected Saudi Novel, Journal of Signs in Criticism, The Literary Club, Jeddah, vol 17, no 68, 2009.
11 - The Writing as a narrator, Journal of al-Atam, The Literary Club, Medina, no. 34, 2009.
12 - Questions of Cultural Identity in the Arabic Novel, al-Aqeeq, The Literary Club, Medina, Vol. 36, No 71-72, 2009.
13 - Strategies of Polemical Discourse between Abduljabbar al-Asdabadi and Abdulqahir al-Jorjani, Bulletin of the Arabic Studies, Minia University, no 20, 2009.
14 - The Aspects of the Outer Place in Novels by Saudi Women, Journal of King Saud University, Arts, Volume 22, Niber 2, 2010.
15 - The Other and Power: Representations of the Slavery in the Saudi novel, Journal of the Faculty of Arts, University of Manofia, 2011.
16 - Strategies of Polemical Discourse between Traditionalists and Modernists in Saudi Literature, Journal of Taif University for Arts and Education, Number 6, 2011.

Monograph 372

Hidden Interpretation: The Cultural Contexts of the Destruction of Books in Arab Islamic Civilization

Dr. Mageb AL-Adwani
Department of Arabic Language - Faculty of Arts
King Saud University
Saudi Arabia

استبانة آراء القارئ

عزيزي القارئ:

يسر أسرة تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية أن ترحب بكم وتتقدم لكم بأطيب التحيات، شاكرين لكم سلفاً تعاونكم من أجل تطوير الحوليات؛ وذلك من خلال إجابتكم عن هذه الأسئلة:

١ – العمر: ..... سنة

٢ – الجنس: ذكر ☐ أنثى ☐

٣ – بلد الإقامة: الكويت ☐ خارج الكويت (اذكر) .....

٤ – التعليم:

ثانوي ☐ جامعي ☐ ماجستير ☐ دكتوراه ☐

٥ – طبيعة المهنة:

أكاديمي ☐ إداري ☐ مهني ☐ أخرى (واذكرها)...

٦ – مواضيعك المفضلة:

أدبية ولغوية ☐ سياسية ☐ اجتماعية ونفسية ☐

تاريخية ☐ ثقافية ☐ أخرى (واذكرها) ...

٧ – كيف تحصل على الحوليات؟

شراء ☐ اشتراكاً ☐ استعارة ☐

٨ – هل تصلك الحوليات في الوقت المناسب؟ نعم ☐ لا ☐

٩ – رأيك في حجم الحوليات؟

كبير ☐ متوسط ☐ صغير ☐

١٠ – كيف ترى موضوعات الحوليات؟

متنوعة ☐ غير متنوعة ☐

١١ – ما الطابع العام للحوليات من وجهة نظرك؟

لغوي ☐ اجتماعي ☐ تاريخي ☐ جغرافي ☐ متنوع ☐

١٢ – هل تقرأ الحوليات بانتظام؟ نعم ☐ لا ☐

١٣ – هل تقرأ الحوليات فقط إذا كان موضوعها له علاقة بتخصصك؟ نعم ☐ لا ☐

١٤ – هل تقرأ الحوليات فقط إذا كنت ستستعين بمادتها كمرجع لبحث؟ نعم ☐ لا ☐

١٥ – هل تحتفظ بالحوليات بعد قراءتها؟ نعم ☐ لا ☐

١٦ – اقتراحاتك لتطوير الحوليات وتطوير خدماتها للقارئ:

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت

ص. ب: 17370 الخالدية
الكويت 72454
دولة الكويت

البريد الجوي
BY AIR MAIL
PAR AVION

مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت
تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

رئيس التحرير الأستاذ الدكتور: عبدالعزيز خليفة القصار

صدر العدد الأول في رجب ١٤٠٤هـ - أبريل ١٩٨٤م

* تهدف إلى معالجة المشكلات المعاصرة والقضايا المستجدة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.
* تشمل موضوعاتها معظم علوم الشريعة الإسلامية: من تفسير، وحديث، وفقه، واقتصاد وتربية إسلامية، إلى غير ذلك من تقارير عن المؤتمرات، ومراجعة كتب شرعية معاصرة، وفتاوي شرعية، وتعليقات على قضايا علمية.
* تنوع الباحثون فيها، فكانوا من أعضاء هيئة التدريس في مختلف الجامعات والكليات الإسلامية على رقعة العالمين: العربي والإسلامي.
* تخضع البحوث المقدمة للمجلة إلى عملية فحص وتحكيم حسب الضوابط التي التزمت بها المجلة، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين في الشريعة الإسلامية، بهدف الارتقاء بالبحث العلمي الإسلامي الذي يخدم الأمة، ويعمل على رفعة شأنها، نسأل المولى عز وجل مزيداً من التقدم والازدهار.

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

ص.ب ١٧٤٣٣ - الرمز البريدي: 72455 الخالدية - الكويت هاتف: ٢٤٨١٢٥٠٤ - ٢٤٩٨٤٧٢٣ - ٢٤٩٨٨٠٩٥

فاكس: ٢٤٨١٠٤٣٤

العنوان الإلكتروني: E-mail - jsis@ku.edu.kw

issn: 1029 - 8908

عنوان المجلة على شبكة الإنترنت: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/JSIS

اعتماد المجلة في قاعدة بيانات اليونسكو Social and Human Sciences Documentation Center

في شبكة الإنترنت تحت الموقع www.unesco.org/general/eng/infoserv/db/dare.html

مجلة فصلية أكاديمية
محكّمة تعنى بنشر البحوث
والدراسات القانونية والشرعية

مجلة الحقوق

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير
الأستاذ الدكتور/ أحمد عبد الرحمن الملحم

صدر العدد الأول في
يناير ١٩٧٧

الاشتراكات

	في الكويت	في الدول العربية	في الدول الأجنبية
الأفراد	٣ دنانير	٤ دنانير	١٥ دولاراً
المؤسسات	١٥ ديناراً	١٥ ديناراً	٦٠ دولاراً

المراسلات

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:
مجلة الحقوق - جامعة الكويت ص.ب: ٦٤٩٨٥ الشويخ - ب 70460 الكويت
تلفون: ٢٤٨٣٥٧٨٩ - ٢٤٨٤٧٨١٤ فاكس: ٢٤٨٣١١٤٣
E.mail: jol@ku.edu.kw

عنوان المجلة في شبكة الإنترنت http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jol

ISSN 1029 - 6069

المجلة العربية للعلوم الإدارية

Arab Journal of Administrative Sciences

رئيس التحرير: أ. د. آدم غازي العتيبي

- صدر العدد الأول في نوفمبر ١٩٩٣ .
- First issue, November 1993.
- علمية محكمة تعنى بنشر البحوث الأصيلة في مجال العلوم الإدارية.
- Refereed journal publishing original research in Administrative Sciences.
- تصدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت ثلاثة إصدارات سنوياً (يناير - مايو - سبتمبر).
- Published by Academic Publication Council, Kuwait University, 3 issues a year (January, May, September).
- تسهم في تطوير الفكر الإداري واختبار الممارسات الإدارية وإثرائها.
- Contributes to developing and enriching administrative thinking and practices.
- مسجلة في قواعد البيانات العالمية.
- Listed in several international databases.
- تخضع للتقييم الأكاديمي الخارجي.
- Reviewed periodically by international referees for high academic standards.

الاشتراكات

الكويت: 3 دنانير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات - الدول العربية: 4 دنانير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات
الدول الأجنبية: 15 دولاراً للأفراد - 60 دولاراً للمؤسسات

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:

المجلة العربية للعلوم الإدارية - جامعة الكويت ص.ب: 28558 الصفاة 13146 - دولة الكويت
هاتف: Tel: (965)24827317 - أو 4734 / 4416 /24984415(965) - فاكس: Fax: (965)24817028
E-mail: ajas@ku.edu.kw - Web Site: http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajas

مجلة العلوم الاجتماعية

فصلية – أكاديمية – محكّمة
تصدر عن مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في تخصصات السياسة والاقتصاد والاجتماع والخدمة الاجتماعية
وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية والجغرافيا وعلوم المكتبات والمعلومات

رئيس التحرير: هادي مختار أشكناني

تفتح أبوابها أمام

- أوسع مشاركة للباحثين العرب في مجال العلوم الاجتماعية لنشر البحوث الأصيلة والاسهام في معالجة قضايا مجتمعاتهم
- التفاعل الحي مع القارئ المثقف والمهتم بالقضايا المطروحة.
- المقابلات والمناقشات الجادة ومراجعات الكتب والتقارير.
- تؤكد المجلة إلتزامها بالوفاء والانتظام بوصولها في مواعيدها المحددة إلى جميع قرائها ومشتركيها.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية
جامعة الكويت
ص.ب 27780 الصفاة، 13055- الكويت
تليفون: 00965-4810436
فاكس 4836026
E-mail:JSS@kuc01.kuniv.edu.kw

الاشتراكات

	الكويت والدول العربية	الدول الأجنبية
أفراد	3 دنانير سنوياً ويضاف إليها دينار واحد في الدول العربية	15 دولاراً
مؤسسات	15 ديناراً في السنة 25 ديناراً لمدة سنتين	60 دولاراً في السنة 110 دولارات لسنتين

تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً نقداً أو بشيك باسم المجلة مسحوباً على أحد المصارف الكويتية ويرسل على عنوان المجلة، أو بتحويل مصرفي لحساب مجلة العلوم الاجتماعية رقم 07101685 لدى بنك الخليج في الكويت (فرع العديلية).

Visit our web site: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jss

المجلة التربوية

مجلة فصلية، تخصصية، محكّمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير: أ. د. عبدالله محمد الشيخ

تُنشر:

- البحوث التربوية المحكمة
- مراجعات الكتب التربوية الحديثة
- محاضر الحوار التربوي
- التقارير عن المؤتمرات التربوية وملخصات الرسائل الجامعية

- تقبل البحوث باللغتين العربية والإنجليزية.
- تنشر لأساتذة التربية والمختصين بها من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية.

الاشتراكات:

في الكويت: ثلاثة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول العربية: أربعة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول الأجنبية: خمسة عشر دولاراً للأفراد، وستون دولاراً للمؤسسات.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير المجلة التربوية - مجلس النشر العلمي ص.ب. ١٣٤١١ كيفان - الرمز البريدي 71955
الكويت هاتف: ٢٤٨٤٦٨٤٣ (داخلي ٤٤٠٣ - ٤٤٠٩) - مباشر: ٢٤٨٤٧٩٦١ - فاكس: ٢٤٨٣٧٧٩٤
E-mail: joe@ku.edu.kw

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

اكاديمية - فصلية - محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

- بحوث باللغة العربية
- بحوث باللغة الإنجليزية
- مناقشات وندوات
- عروض الكتب الجديدة
- تقارير ومؤتمرات

مجلس النشر العلمي

رئيسة التحرير

أ.د. سعاد عبدالوهاب العبدالرحمن

P.o.Box: 26585 - Safat. 13126 kuwait

Tel: (+965) 4817689 - 4815453 Fax: (+965) 4812514

E-mail: ajh@kuniv.edu.kw http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajh/

مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية

جامعة الكويت - تأسس عام ١٩٩٤م

مدير المركز
أ. د. يعقوب يوسف الكندري

يصدر عن المركز

- سلسلة الإصدارات الخاصة.
- سلسلة إصدارات الاستكتاب.
- سلسلة ملخصات الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه).
- سلسلة إصدارات لنشر بحوث الندوات والمؤتمرات.
- سجل الأحداث الجارية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية وجوارها الجغرافي.
- مجلدات وثائق مختارة لمنطقة الخليج والجزيرة العربية وجوارها الجغرافي.

سلسلة الإصدارات

سلسلة علمية محكمة

تُعنى موضوعاتها بمنطقة الخليج والجزيرة العربية، وتهدف إلى إبراز خصوصيتها، ورصد قضايا التنمية بأبعادها الحضارية الشاملة في ضوء المتغيرات الجارية.

قواعد النشر

أولاً : أن يكون البحث أو (الدراسة) معنية بشؤون منطقة الخليج والجزيرة العربية في المجالات الآتية: السياسة، الاقتصاد، الجغرافيا، التاريخ، علم النفس، الاجتماع، الأنثروبولوجيا التربية، اللغة العربية وآدابها، الثقافة، البيئة، القانون، الإعلام ، التراث (الآثار والحضارة والفنون) .

ثانياً: أن تمثل الدراسة إضافة جديدة إلى حقل التخصص.

ثالثاً: لم يسبق تقديمها أو جزء منها للنشر إلى جهة أُخرى.

رابعاً: ألا يقل عدد صفحات البحث أو (الدراسة) عن ١٠٠ صفحة.

خامساً: يقدم المركز مكافأة مالية رمزية عن كل دراسة.

الاشتراكات	نوع الاشتراك	الكويت	الدول العربية	الدول الأجنبية
	الأفراد	٤ د.ك	٤ د.ك	١٤ دولاراً
	المؤسسات	٢٥ د.ك	٢٥ د.ك	٦٨ دولاراً

المراسلات:

توجه جميع المراسلات باسم مدير المركز

ص.ب : ٦٤٩٨٦ (ب) الشويخ ، ٧٠٤٦٠ الكويت

هاتف : ٢٤٨١٦٧٩٩ - ٢٤٨١٦٨٠٧ - ٢٤٨١٦٨٢٤ (المفتاح الدولي ٠٠٩٦٥) فاكس : ٢٤٨١٤٢٩٥ - ٢٤٨١٠٤٧٤

البريد الإلكتروني للمركز cgaps@ku.edu.kw

العنوان الإلكتروني لصفحة المركز www.cgaps.kuniv.edu

إصدار شهري

«تصدر مؤقتاً كل ثلاثة أشهر»

تعنى بشؤون الأنظمة والمحاماة

رئيس التحرير :
المحامي / طارق المزيني

سكرتير التحرير :
حسين العسكر

مسؤول إشتراكات :
خالد يس

الهيئة الاستشارية :
فضيلة الشيخ / عبد الله البسام
فضيلة الشيخ / مصطفى الزرقا
فضيلة الشيخ / سعد البريك
سعادة الدكتور / سعود الدريب
سعادة الأستاذ / عبدالله السبهان
سعادة الدكتور / عبدالفتاح خضر
سعادة المستشار / أحمد منير فهمي

أهداف المجلة :

* طرح ومعالجة شتى قضايا العصر ذات الطابع الشرعي والقانوني مع التركيز على إبراز الفقه الإسلامي وتبيان تميزه وشموليته في معالجة تلك القضايا .
* أن تكون ساحة إعلامية للذوي الإختصاص الشرعي والقانوني يقدمون من خلالها البحوث والدراسات ، فضلاً عن التحقيقات الصحفية المتميزة ذات العلاقة .
* نشر الوعي بأهمية المحاماة ، وحاجة الناس إليها والتأكيد على أن المحاماة علم ، وفن ، ورسالة .

دعوة للمشاركة :

* يسر «المحامي» دعوتكم للمساهمة عبر صفحاتها في كل الشؤون الشرعية والقانونية من بحوث ودراسات ومقالات أو تحقيقات .
* تقدم المجلة مكافأة عن المقالات والمواضيع التي تقبلها للنشر .

الاشتراكات: المملكة العربية السعودية : ١٠٠ ريال في السنة (للأفراد والمؤسسات)

الدول الأخرى : ٢٧ دولار أمريكي (للأفراد والمؤسسات)

تدفع الاشتراكات باسم المجلة ، بشيك مسحوب على أحد المصارف السعودية أو بتحويل مصرفي باسم رئيس التحرير : حساب رقم ٥٦٤٩/١ ـ شركة الراجحي المصرفية للاستثمار ـ الرياض ـ فرع الروضة .

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير : ص . ب ٦٨٧٤ الرياض (١١٤٥٢)

هاتف : ٤٦٥٢٧٢٥ (٩٦٦١) / فاكس : ٤٦١٣١٥٢ (٩٦٦١)

جامعة الكويت
مجلس النشر العلمي

- تشكلت لجنة التأليف والتعريب والنشر - التابعة لمجلس النشر العلمي بجامعة الكويت في عام 1976 م .

* أهداف اللجنة :

1- توسيع دائرة النشر العلمي بمختلف التخصصات العلمية لأعضاء هيئة التدريس في جامعة الكويت .

2- إثراء المكتبة الكويتية بالكتب والمؤلفات العلمية والتخصصية والثقافية وكتب التراث الإسلامي باللغات العربية والأجنبية .

3- دعم وتنشيط عملية التعريب التي تعد من الأهداف الرئيسة التي انعقد عليها الإجماع العربي .

* مهام اللجنة :

طبع ونشر المؤلفات العلمية والدراسية والأكاديمية والكتب الجامعية(Text Book) ,و المترجمة لأعضاء هيئة التدريس التي يرغب أصحابها في نشرها علي نفقة الجامعة,ويراعى التوازن في نشر هذه المؤلفات بحيث تغطي مختلف الاختصاصات في الكليات الجامعية .

توجه جميع المراسلات باسم رئيس اللجنة على العنوان التالي :
لجنة التأليف والتعريب والنشر / جامعة الكويت
ص.ب : 28301 الصفاة 13144 - دولة الكويت
تلفون : 4843185 / فاكس : 4843185
البريد الإلكتروني : atapc @kuc01.kuniv.edu.kw
الموقع على الإنترنت : www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/atapc

Advisory Board

Prof. Ibrahim Al-Sa'afin
Department of Arabic Language and Literature - University of Jordan

Prof. Hayat N. Al-Hajji
Department of History
University of Kuwait

Prof. Ahmed Etman
Department of Greek and Latin Studies - University of Cairo

Prof. Abdul Qader Al-Fasi Al-Fehri
Department of Arabic Language and Literature - University of Mohamed V

Prof. Ismail S. Muqlad
Department of Political Science - University of Assiout

Prof. Marie-Therese Abdul Messieh
Department of English Language and Literature - University of Kuwait

Prof. Imam Abdul Fattah Imam
Department of Philosophy
University of Ain-Shams

Prof. Mohammed Ghanem Al-Rumeihi
Department of Sociology
University of Kuwait

Prof. Hamdi Hasan Abul-Enein
Dean, Faculty of Mass Communication
Misr International University

Prof. Mohammed M. I. Al-Dib
Department of Geography
University of Ain-Shams

Prof. Mahmoud Al-Sayed Abul-Nil
Department of Psychology - University of Ain Shams

Editorial Board

Dr. Fatima Ibrahim AL - Khalifa

Editor-in-chief

Pfor. Bader M. Al-Ansari

Department of Psychology

Prof. Shafeeq Al-Ghabra

Department of Political Science

Prof. Gamal B. Al-Qenaee

Department of English Language and Literature

Dr. Husain A. Bo-Abbass

Department of Arabic Language and Literature

Dr. Gassem S. Al-Fehaid

Department of Arabic Language and Literature

Dr. Aly Z. Alzuabi

Department of Sociology and Social Work

Dr. Ahmed EL-Sherbini

Department of History

Maha Ibrahim Al-Mes'ad

Acting Editor

ANNALS of

ARTS and SOCIAL SCIENCES

Issued by the Academic Publication Council - University of Kuwait

A REFEREED ACADEMIC QUARTERLY THAT PUBLISHES MONOGRAPHS ON TOPICS RELEVANT TO THE SCHOLARLY CONCERNS OF THE VARIOUS DEPARTMENTS IN THE FACULTIES OF ARTS AND SOCIAL SCIENCES:

FACULTY OF ARTS & HUMANITIES:

- Department of Arabic Language and Literature.
- Department of English Language and Literature.
- Department of History.
- Department of Philosophy.
- Department of Mass Communication

FACULTY OF SOCIAL SCIENCES.

- Department of Sociology and Social Work
- Department of Geography
- Department of Psychology
- Department of Political Science

Volume 33, 2013

Rates

- **Kuwait**: K.D 0.500
- **Bahrain**: BD 1
- **Qatar**: RQ 10
- **Emirates**: DH 10
- **Saudi Arabia**: RS 10
- **Oman**: RO 1
- **Cost per issue in Arab Countries: Equivalent to one US dollar**
- **Cost per issue in other Countries: Equivalent to three US dollars**

Subscription for 12 Monographs

Subscription Period	Subscription Type	Kuwait	Arab Countries	Foreign Countries
1 Year	Individuals	4 K.D	6 K.D	22 $
	Institutions	22 K.D	22 K.D	90 $
2 Years	Individuals	7 K.D	10 K.D	37 $
	Institutions	37 K.D	37 K.D	150 $
3 Years	Individuals	10 K.D	14 K.D	52 $
	Institutions	52 K.D	52 K.D	210 $
4 Years	Individuals	13 K.D	18 K.D	67 $
	Institutions	67 K.D	67 K.D	270 $

All correspondence and enquiries must be addressed to:

Editor
ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES
P.O Box 17370 El-Khaldiah - KUWAIT 72454
Tel: 24810319 - Fax: 24810319

ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab
E-mail: aass@ku.edu.kw
http://Pubcouncil.kuniv.edu.kw/AASS/

The Publications of The Academic Publication Council

Journal of the Social Sciences 1973, Kuwait Journal of Science and Engineering 1974, Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies 1975, Authorship Translation and Publication Committee 1976, Journal of Law 1977, Annals of the Arts and Social Sciences 1980, Arab Journal for the Humanities 1981, The Educational Journal 1983, Journal of Sharia and Islamic Studies 1983, Arab Journal of Administrative Sciences 1991.